هبة حمدي
مجموعة
قصصية
الرقصة
الأخيرة
دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

الرقصة الأخيرة

مجوعة قصصية

هبة حمدي

العنوان: الرقصة الأخيرة

النوع الأدبي: مجموعة قصصية

المؤلف: هبة حمدي حسين

المُدقق اللُغوي: محمد السيد غنيم

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: فريق عمل الدار

تصميم الغُلاف: فريق عمل الدار

سنة النشر: 2019

الحالة: حصريًا

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 37

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2019

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

فهرست القصص

سلـوم..... ٥
عباقرة ولكن..... ٢٥
الدرويـشة..... ٤٢
الجريدة..... ٦١
الأصـفاد..... ٦٨
النسمات الدافئة..... ٩٧
عناق الذكريات..... ١١٣
عودة الروح..... ١٢٩
الأوراق..... ١٦٣
الرقصة الأخيرة..... ١٦٩
نبذة عن المؤلِّفة..... ١٨٩

سلـوم

من بين الصخور والجبال وأشجار الزيتون المصطفة على جانبي "وادي الأربعين"، سارت الجدة ممتطية ظهر بعيرها في الثمانين من عمرها، حفر الزمن أخاديده على وجهها، وأحنى ظهرها ترتدي جلبابًا أسود مطرز باللون الأزرق، وتضع البرقع الحرير المطرز بالقروش الفضية، وشالًا أسود فوق رأسها تمتد أطرافه على أكتافها لتغطيها، تتقدمها حفيدتها بدور في الثامنة عشر من عمرها، ترتدي ثوبها البدوي المطرز بألوان مبهجة، يلتف حول خصرها حزام يتدلى منه شراشب من الجانب الأيمن، ممسكةً بيدها عصا لتوجيه قطيع الأغنام إلى المرعى.

بجوار أحد أشجار (الزيتون) افترشت الجدة بساط ملون للجلوس عليه، ماسكة بيدها الصوف بعد غسله وتجفيفه لغزله وتحويله لخيوط وتلوينها، لتصنع منها (خُلة) من الكرات الملونة المتدلية بجوار بعضها لتزين بيت الشعر.

نظرت لها بدور بعيون مُكحلة الأهداب قائلة:

. أنت بخير يا جدتي؟

. نعم لا تقلقي لكن أحيا مع من فارقني من الأحبة، بالأمس رأيت زوجي الشيخ دياب في المنام منحنيًا لاستقبالي في حديقة غناء مزينة بالورود والأشجار.

تتنهد الجدة.. قائلة:

. كان زين الرجال يعاملني بحنية وبغلاوة فملأ القلب بهواه حتى تمنيت أن أسبقه المنية فكان يشعر بالضيق قائلًا:

. لا تحلو لي الحياة بدونك يا مهجة الفؤاد.

. رحم الله الجميع وأمد عمرك بيننا.

. ألم يخفق قلبك بالهوى لأحد سوى الشيخ دياب؟

. استحي يا سلوم فمشاهدة المسلسلات أصاب رأسك، فهذا عيب عندنا، فالمرأة البدوية لا تحب سوى زوجها وأبنائها.

وأمسكت قطعة من الشجيرات الصغيرة تجاورها وضربتها على جسدها فهرولت بعيدًا عنها وبعودتها سألتها الجدة:

. أتعلمين لِمَا أحبك يا بدور؟

. لِمَا يا جدتي!

. تذكريني بصباي لعشقك للغناء والأشعار.

. حديثك سرني ليتني مثلك فأنا قطرة في بحرك، لكن أخبريني، هل منعكِ والدك عن سرد الأشعار؟

. لا فكنت مُدَللة عنده لأنني الصغرى بعد أربعة أولاد وثلاث بنات، وبرغم صرامة وجه وعبوسه عاملني برقة، ولم يرفض لي ما أتمنى حتى كبرت وصرت شابة يافعة أجلس أمام الخيمة أُدندن الكلمات، ويدي دائرة بالرحاة لطحن الدقيق فيسمعني أخي الكبير فينهرني قائلًا:

. ليس لدينا عُرس إن سمعت صوتك سأطحن رأسك.

فيعنفه والدي قائلًا:

. اتركها فصوتها عذب يطرب الأسماع.

كانت حياتنا شاقة دائمة الترحال للبحث عن الحطب لإشعال الكانون، والسير مسافات بعيده لإيجاد بئرًا نملأ منه الغرار للشراب، وسقية الإبل والخراف، وصنع أقمشة الخيام من غزل شعر الماعز، فلم تكن لنا بيوت مبنية بالطوب، ولا نملك عربات للترحال.

. لكن البيوت مُريحة وجميلة.

. لكنها تَجثم على صدري، وتخنق أنفاسي، لقد ولدت وترعرعت في كنف الصحراء حيث الرمال الذهبية والصخور والجبال.

عادت بدور السؤال قائلةً:

. أخبريني ولن أُعلم أحد؟

فنهرتها ثم سرحت نظراتها إلى الفراغ.. فسؤالها استعاد بداخلها الكثير من المشاعر المخبأة بين جوانحها، وأسدلت أهداب جفونها، رافعة الغطاء عن صندوق أسرارها المخبأ بين ردهات قلبها على مدار عمرها الذي أوشك على الانتهاء قائلةً:

. سأروي لكِ لكن عديني ألا يعلم أحد ما سأقول.

. أعدك.

جاء فصل الوسيم وارتوت الأرض القاحلة بأمطار غزيرة لتعم الفرحة أرجاء الوادي، فبعد الوسيم يأتي الربيع وتنبت الأعشاب في الوديان.

سارت سلوم والريح تجذب أطراف ردائها في المرعى، تغني، وتروي الأشعار، كاشفة عن وجهها، عندما سمعها جواد فنزل من فوق ظهر فرسه مسترق السمع بحثًا عن صاحبة الصوت الغناء، فرأها ذات قوام فارع، ميادة، يعلوه وجه كأنه القمر الوليد ثائرة الجمال كجذوة لا تخمد أبدًا.

علا صهيل الخيل فاستدارت لتلاقاه يرقبها بقامة طويلة، وشارب كث متدلي على شفتيه الغليظتين، وعينان متسعة الأحداق، فاستحت وأسدلت برقعها ولملمت طرف شالها للأمام، وجمعت الأغنام عائدة أدراجها.

مع كل نهار اعتاد (جواد) المجيء لرؤيتها لتفصح عيناه بما يجيش بصدره فكم تمنى أن يُحدثها:

أنه عاشق شفه الوجد، وبرح به الضنى، وهى قرة العين، والفؤاد كم تمنى أسرها فوق ظهر حصانه والهروب في صحراء ليس بها سواهما، لكن أعرافهما تقيدهما، فلا سبيل لديه سوى أن يخبئها بين عيونه، ويسمع صوتها، ويتواجد بقربها، ويرحل برحيلها.

بات ليلة وقد جفاه الكَرَى، متقلبًا من سَهده على الجانبين، فقام من فراشه إلى العراء يرى وجهها كما يظهر القمر ويختفي بين غلالات السحب المتراكمة، فرآه صديقه عدنان عند مروره فجلس بجواره قائلًا:

. يا بن العم ما بك سوى ولع المحبين وسهد العاشقين.

. والله ما كذبت.

. ومَن المحبوبة؟

. لا أعلم فهي من قبيلة الجبالية.

. أليست من قبيلتنا؟

. لا.

. اتركها في حالها فأنت أعلم بتقاليدنا فلا يجوز.

. لا أقدر فهواها تملكني وأريد معرفة مشاعرها نحوي.

. وإذا لم تهواك ستنساها؟

. نعم.

. عند رؤيتها أمسك شجرتين من الرتم وربطها ببعضها أمام عينيها.

ارتبكت، واحمرَّت وجنتيها خجلًا، وخارت أوصالها فهذا تعبير صريح بحبه لها.

انصرف جواد مُتحيرًا وأخبر صديقه عدنان فقال له:

. انتظر إلى اليوم السابع واذهب وستعرف إذا وجدت الشجرتين مازالتا معقودتين فقلبها معك.

في المحرم رقدت في فراشها تحملها السعادة على أجنحتها بعيدًا عن النوم، فرحة بفارسها الذي لا تدري له اسمًا، أو قبيلة لكن ظفر بقلبها.

مع أول نسمات الفجر استيقظت لحلب الإبل، وجهزت (فكوك الريق) من العيش، واللبن، للإفطار وعاونتها والدتها، وبعد الانتهاء ذهبت للمرعى فوجدت الشجيرات فتركتها ولم تباعدها.

جاء اليوم السابع فحضر ليجد الشجيرات معقودة ففرح، وظل منتظرًا فرصة سانحة للحديث بدون أن يراه أحد، عندما ضلت إحدى العنزات من القطيع اقترب وأعادها قائلًا:

. تُرى ما اسمك أيتها الحسناء؟

قالت له وهي تستدير محدثة العنزات:

. يا سلوم تعالي هنا.

. أنا جواد على ظهر الخيل هايم في الوديان، وبعيونك أقول أجمل الأشعار اسمك مثل وجهك خالية من كل عيب.

وكان الوادي الشاهد الوحيد على قصة الحب الصامت الذي ترعرعت بين شعابه.

في ربعة بيت الشعر المعدة لاستقبال الضيوف أمر الشيخ نعمان بذبح الشاة وإعداد الغذاء للضيوف، جلس جواد ووالده شيخ خلفان أمام (البكرج) لرشف القهوة.

بصوت مرتعش، وحلق جف رضابه، همس لوالده قائلًا:

.كف عن الحديث في شئون القبيلة واطلب منه يد العروس، فأومأ برأسه قائلًا:

. علمنا بأن لك ابنة في عمر الزواج فجئناك طالبين يدها من عندك وإن شاء الله ما نعود خائبين.

نظر لهم الشيخ متسائلًا:

. وبأي قبيلة أنتم؟

. قبيلة المزينة.

ألا تعلم يا شيخنا بأننا من قبيلتين مختلفتين ولا يجوز؟

. أنا أطمع أن أنال شرف مصاهرتكم.

. اتركني آخذ رأي رجال القبيلة.

بعد عدة أيام أتى لمعرفة الرد ليعتصر قلبه ألمًا لرفضه المصاهرة.

هام جواد في الوادي يعاني لوعة الحرمان شاكيًا لجبل البنات، وشجر الزعرور، وأشجار الزيتون متمنيًا تحطيم الأعراف التي حرمته من محبوبته وشاديًا أروع الأشعار:

عفت الهوى من بعد ما شفت دنياه عفت الليالي كلها في تجافيك

مشاعرك تعصاه وأنت تعصيها ما شفت منك إلا عيونك ويمناك

يقبض فؤادي لا تخيلت فرقاك يا شف عيني ما سواك يعنيها

على الكتم منقوش بعصا الكتابة حتى أثر مشيه مع سهول وهضاب

يبكي نـدم بعد فرقـاه واكتب قصيدة الحـزن بفرقـاه

***

في الوادي سارت سلوم تبحث عن الحطب لتوقد الكانون لخبز العجين، سمعت صهيل الحصان فانتفض قلبها ظنًا أنه جواد، وهرولت وراء الصوت فوجدته ابن عمها دياب يخبرها بضرورة العودة لأن الشمس مالت إلى المغيب.

في الربعة جلس الشيخ سعدون والد دياب أمام الشيخ سلطان طلبًا لزواج سلوم

فرد عليه الشيخ نعمان قائلًا:

. حياكم الله القمر قدامكم والظُلمة جفاكم.

وأعطاه (القِصلة) وهو عود شجر أخضر قائلًا:

هذه (قصلة) سلوم على سنة الله ورسوله.

فتناولها دياب قائلًا:

. قبلتها زوجة لي على سنة الله ورسوله.

. مهر ابنتي ثلاث، جمال وثوب وعباءة وبرقع فهي غالية.

. أمرك والغالي للغالية وسأحضر لها ذهبًا فهي ابنة شيخنا.

بعد رحيلهم ذهب لها والدها في المحرم المخصص للنساء والأطفال قائلًا:

. سلوم لقد أعطيت قصلتك لابن عمك دياب مبارك لك.

سقط المغزل من يدها، وتساقطت معه العبرات حسرة على فراق الحبيب.

باتت هائمة بين أرجاء الوادي تناجي رفيق دربها، وهوى نفسها، الرمال تُسَف في وجهها تواسي ألم فراقه، كم تمنت أن تكون له طيلة عمرها لكن أعرافهم فرقتهما، ولا أحد يشعر بلظى الهوى المشتعل بداخلها.

علا صوت الهاتف برنين أزعج الجدة وأسكتها عن الحديث لتجيب بدور قائلة:

. جدتي بخير يا والدي سأعطيها الهاتف لتحدثها.

. أردت الاطمئنان على صحتك يا أمي.

. أنا بخير وسأظل أرعى الأغنام وأغزل الصوف حتى الرمق الأخير.

. ربي يطيل عمرك.

. ماذا تقول لا أسمع منك شيئًا.

.ثم أعطت الهاتف لحفيدتها قائلة:

. لا أسمع ما يقول

تضحك الفتاة قائلة:

. لأنكِ لا تضعيه على أُذنك جيدًا.

. خذيه بعيدًا عني وتمسك المغزل وتديره لغزل الصوف قائلة:

. قومي تفقدي الأغنام.

. ألن تُكملي لي ما حدث؟

. بعد عودتك.

بعد عدة دقائق عادت لجدتها قائلة:

. ألم تريه مجددًا؟

. للأسف لا.. وظل هذا الحب لم أفصح عنه لأحد سواكِ.

. ألا زال قلبك يهواه.

ضحكت الجدة قائلة:

. لقد كنت صبية صغيرة بقلب بَضَّ فلم أهوى سوى أبا فهد الذي أضناني فراقه منذ عدة سنوات.

جاء دياب إلى عمه ومعه الجمال الثلاثة، وبيده صندوق مملوء بالذهب ليستقبله الشيخ سلطان قائلًا:

. أهلًا بزين الشباب موعد زفافك في فصل الصيف.

. شاكرين لك يا عمي الحبيب.

بدأت بحياكة ملابسها وتطريز شال عرسها الأسود الذي ترتديه عند ذهابها لبيت زوجها.

قبل موعد الزفاف بَنى الشيخ سعدون خيمة بيت العرس، وفرشه بمختلف البسط، والوسائد، لسهولة تناولها عند توافد الضيوف، أما الجهة الأخرى فوضع بها الكانون لإعداد القهوة السادة، وعلى بابها نحرت الذبائح ورفعت الراية البيضاء ترفرف طيلة أيام العرس.

في ليلة الزفاف مُلِئَت الخيمة بمهنئين جاءوا بحمائلهم من الماعز، والخراف، والدقيق، والسكر، هدايا للعروسين واصطف الرجال بجوار البعض، وضربت الأكف لرقص (الدحية) على أنغام السمسمية، وعلت الحناجر بالغناء، ونحرت الذبائح على بابها لإعداد الولائم إكرامًا للضيوف.

في الظهيرة هُيأت بثوب زفافها الجديد، ومصوغاتها البراقة محاطة بالنساء، والفتيات للغناء، والطبل، والزغاريد، والالتفاف حول الصواني المحملة بالكبسة لتناولها، واحتساء القهوة المضاف لها (الحُبك) لإعطائه مذاقًا مميزًا.

كانت تفتعل الفرحة بزينتها أمام النساء وقلبها مخضب بالأحزان.

جاء جواد مطالعًا لخيمتها من بعيد ومعه صديقه عدنان يربت على كتفيه قائلًا:

. انساها لقد أصبحت لغيرك.

. لا أقدر.

. تزوج من تنسيها لك.

. لا أعتقد فأول خفقة للفؤاد تظل لآخر العمر أجمل ذكرى.

في الليل تحرك دياب راكبًا جمله نحو خيمة عروسه، يرافقه والده وأقاربه ليستقبله أهلها بالمباخر والغناء، ليرى عروسه جالسة في منتصف الخيمة في أبهى زينتها قائلًا:

. ما أجمل هذا الوجه الريان فحسنك يبهر الألباب.

خُيّل إليها أن جواد أتى فتبسمت، وأسدلت برقعها الحريري ذو السرس الذهبي في منتصف الوجه المرصع بالقروش الفضية، والحجب الذهبية على الجانبين، أمسك يدها والدها وأخرجها إلى الخارج تسبقها امرأة ممسكة إبريقًا مليئًا بالماء والسكر ترشه في طريقها حتى تكون حياتها حلوة وسعيدة.

ركبت الهودج المُزين، وأسدلت على جوانبه إلى بيتها الجديد، ليكون في استقبالهم أهل دياب أمام باب (برزة العرسان) التى تتسع لمنامهم، وأمتعتهم القليلة، وقد افترشت أرضها ببسط ملونة مصنوعة من الصوف، وطاولة مستطيلة خشبية، اصطفت عليها الأغطية، ووسائد محشوة بالصوف، وزينات علقت بجميع أركانها.

عندما خلت الخيمة ارتعدت فرائصها وارتعش جسدها خوفًا فطمئنها وأخذها بصدره قائلًا:

. شوقي لكِ ليس له حدود فأنتِ غالية عندي.

لمعت عيناه واربدت ملامح وجه حتى كادت شعيرات شاربه تمتد أمام شفتيه المرتعشتين كالحراب المسنونة للارتواء من حسنها الوهاج في حرب لا هَوَادة فيها، حتى اكتهل الليل ولفهم بكسائه الوسنان إلى الصباح.

بعد انتهاء مراسم الزفاف عكفت الاعتناء بشئون بيتها، وتناست جواد وأصبح ذكرى تلمع بخلدها كل حين.

عند البئر وقفت لملء غراره الماء، وحملها فوق رأسها عندما شعرت بآلام شديدة فعلا ندائها قائلة:

. يا أم سعيد أشعر بآلام الوضع فساعديني للعودة إلى خيمتي.

. حاضر سآتي لكِ.

تركت غرتها وجاءتها مسرعة، علمت جميع نساء أنها تلد فحضرن لها. انتظر دياب خارج الخيمة حتى سمع صوت بكاء المولود وجاءته إحدى السيدات تبشره:

. مبروك راعي الإبل، الله يجعله من خدامينك ويعيش في حياتك.

. الله يباركلك يا وجه السعد. وأعطاها ذهبًا لبشارتها.

دخل ليرى مولوده قائلًا:

. مبارك لنا يا سلوم.

. مبارك لك بما ستسميه؟

. أسميه فهد.

. مبارك علينا أبا فهد.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت تناديه أبا فهد.

في يوم سبوع الصبي نحرت الذبائح وأعدت الولائم التي التف حولها أهل القبيلة للتهنئة، ووضع النقوط في الصحن بعد الانتهاء منه هدية للطفل وأمه، ملأ قلب سلوم وديان الفرحة بوليدهما واهتمت به حتى أتم أربعين يومًا فأخرجته لأول مرة لخيمة جدته أم أبيه لإلباسه الجديد من الثياب وتريقه.

في خيمة الجدة حضر منصور أحد الصالحين ووضع إصبعه بلعابه ليرطبه ثم يضعه بفم المولود قائلًا:

. خذ من ريقي واتبع طريقي.

كبر ديان وأنجبت بعده اثنان من الذكور وثلاث بنات عكفت على تربيتهم مع زوجها.

أمام الخيمة جلست تخض اللبن في (السعن)، يجاورها إحدى ابنتيها لتتبادل معها في تحريكه، وعلى قدميها رضيع لها في الشهور الأولى يتابعها بصمت عندما هرول لها ديان قائلًا:

. أمي لقد توفى جدي الشيخ نعمان.

. مرارة العلقم بحلقي أمات أبي حقًا.

. نعم وجدتي أخبرتني أن أستدعيك.

قامت من مجلسها وأعطته أخيه الصغير لتنزع برقعها وتتلثم بالسواد.

عند خيمة أبيها ندبت بصوت عالٍ، وحلت شعرها، وأهالت التراب على رأسها، عند رؤيته محمول

على الأكتاف ليحفر له في الأرض ويهال عليه التراب، فتملك الحزن منها وسارت الحياة تجاذبها بين الأفراح والأحزان.

في الصحراء عندما علت الشمس في كبد السماء وقفت سلوم بين الأبقار والماعز، بعدما خبا عنها بهائها وسحرها تسير بخطوات بطيئة تتكئ على عصاها لحلب إحدى العنزات، عند الانتهاء جلست على صخرة تلتقط أنفاسها اللاهثة ملتفًا حولها أحفادها لسماع قصص الجدة، فهرم جسدها لم يمس ذاكرتها في استرجاع أبسط المواقف على مدار عمرها المديد، فهي سامر البيت الذي يشدو القصص، والأشعار، وأخبار القبيلة بلسان تلوكه بفاه خالٍ من الأسنان إلا القليل الذي يعينها على مضغ الطعام، أثناء حديثها صمتت الجدة وخارت قواها فسقطت، وانتفضت قلوبهم ذعرًا عليها.

في المحرم رقدت الجدة على فراشها يجاورها الطبيب بعد إحضاره بالعربة لعلاجها، وإعطائها الدواء الذي امتنعت عن تناوله قائلة:

. لِمَا أتناول الدواء والشافي هو الله.

قال لها:

. يا جدة أنت غالية نريدك بخير.

. نظرت له بعيون ذابلة قائلة:

. أنا بخير يا ولدي برؤياك.

. يا جدة أوصيك بالراحة حتى تستردي عافيتك.

. الراحة مع الأحباب.

في اليوم التالي قامت القبيلة بذبح الخراف لإقامة عرس إحدى الفتيات، ولا يحلو السامر بدونها جالسة بين النساء تتهيأ البنات حولها بالزينة ووضع المساحيق الملونة لتقترب منها بدور قائلة:

. جدتي أريد أن أضع لك أحمر شفاه.

غضبت منها بشدة وعنفتها قائلة:

. عيب عليكِ يا بدور فطيلة حياتي لم أتزين سوى بكحلتي زواق عيني.

. أعتذر لكِ لا تغضبي هيا انشدي لعروستنا أجمل الكلمات.

فبدأت الجدة تُتدن بصوت واهنٍ ضعيف وجميع الفتيات يَلتفين من حولها قائلة:

. كاملة ومكملة بكل الأوصاف ما يزيدها الذهب لمعه هي تزيده

وجهها كالبدر منور وصافي سبحان من خلا ملامحها فريدة

من زينها شابت كل حروف القوافي مالوم قصيدي لو وقفت شراينه.

صاحت البنات من حولها ما أحلى أشعارك يا جدتنا الغالية.

عندما جاءت إحدى الفتيات لخيمة النساء قائلة:

. وصلت الفرقة من القاهرة للرقص والغناء.

هرول الجميع من وراء الستار لرؤيتها وسماع ما تقدمه.

جلست الجدة تمصمص شفاها يمينًا ويسارًا قائلة:

. ما يكفي الدحية والسامر يا غضبي منكن.

بانتهاء السامر عادت الجدة إلى خيمتها وأوت إلى فراشها.

حين تسللت العذراء من خدرها لتقشع الثوب الأسود، وترسل إشعاعها الفضي على رمال الوادي وأوراق أشجار الزيتون فتتساقط نقطها على الأرض حتى لتخالها عروشها من فضة متناثرة حواليك استيقظت الجدة تنادي على بدور قائلة:

. أعدي الإفطار.

. حاضر يا جدتي لكن أمهليني بعض الوقت لأن الموقد قد فرغ وسأشعل الكانون.

بعد تناول الطعام قالت لها:

. أحضري لي البعير لأذهب معك للرعي.

. أنت متعبة.

. ما أتعبني بالجلوس في خيمتي.

التحفت الجدة بشالها الأسود وغطت وجهها بطرفه، وامتطت ظهر حمارها تجاورها حفيدتها ممسكة بعصا لتوجيه القطيع عندما سألتها:

. لماذا رفضت الزواج من سلمان فهو زين الرجال؟.

. لا أهواه يا جدتي؟

. فى صباي ما كانت فتاة تتجرأ على رفض عريس اختاره الأب زوجًا لها، أبقلبك هوى لأحدهم؟

. نعم من قبيلتنا.

. لكن لا أعلم شعوره لي؟

. اعلمي لو يهواكِ سيحضر لطلبك من أبيك.

فنظرت إليها بعيون متوجسة لعدم حدوث ذلك.

وصلا إلى المرعى ونزلت الجدة من على ظهر بعيرها تفترش الأرض، متظللة بأغصان أشجار الزيتون الوارفة ممسكة بمغزلها، مستغرقة بحديث انتهى عندما بدأت الشمس تلملم ثوبها لتعود في خدرها، فقالت الجدة:

. هيا بنا يا بدور لقد أوشكت الشمس على الرحيل أمسكي بيدي لمساعدتي على النهوض، وامتطت ظهر بعيرها ليعودا أدراجهما إلى القبيلة.

مع بزوغ أولى نسمات الفجر استيقظت القبيلة بأسرها تصطف أمام خيمة الجدة سلوم، المآقي تزرف الدموع، الحناجر تعلو بالنحيب، القلوب تمتلئ بلظى الفراق، "وها قد خبت الشمس فى وهج النهار".

عباقرة ولكن

وقف المذيع أمام الميكرفون بعد انتهائه من تقديم فقرات الحفل الاستعراضية، معلنًا أسماء الفائزين بجوائز الدولة التقديرية في الفن والإبداع في مهرجان "مختلفون ولكن مبدعون"، كان من بينهم محمود جالسًا في مقعده، عند سماع اسمه نهض من مجلسه، أغلق أزرار بذلته السوداء، وحاول التخفيف من رابطة عنقه متحركًا بخطوات دءوبة عبر الدرج المؤدي إلى خشبة المسرح، بوجه أسمر وشعر مجعد، وعينين تلمعان ببريق البهجة والتفاؤل؛ فاليوم ليلة عرسه.

القاعة شاغرة بمختلف الشخصيات العامة التي حضرت للتكريم، الأضواء الملونة غمرت المسرح، دوت الموسيقى العالية عبر المكبرات عند اعتلائه المسرح، بدت نظراته حائرة بين الحاضرين تبحث عن شيء لا يدركه لتستقر على أمه جالسة فى مقعدها يجاورها أبوه، وأخته ذات العشرين عاما، و(أيمن) الأخصائي المعالج له منذ الخامسة من عمره، فاختلافه كشف عن موهبته في رسم أمل مشرق يسطع على لوحات مزينة بزرقة السماء الصافية، وخضرة تبعث على التفاؤل، سابحًا في بحور ألوانه.

هامت نظرات سالم برؤيته أمامه، وأمسك بيد زوجته وقلبه يرتجف من سروره، فرحلتهم مليئة بالتحديات، الصعوبات، الآمال، الأحلام اجتازوها معا لإصاله إلى بر الأمان ليبقى ما بداخلهم سعادة

لا يتخيلها أحد، فمحمود أملٌ طال انتظاره بعد أربع سنوات من الزواج وإجراء العديد من عمليات التلقيح المجهري، حتى فقدا الأمل في الإنجاب، لتشعر منال بوعكة صحية فتذهب إلى طبيبها الذي طالبها بعمل بعض الفحوصات.

بتسلمها النتائج التي بدلت شكوكها بيقين حملها، لم تصدق وأخذت تقرأ التقرير لجميع العاملين في المعمل، مشاعر مشوبة، قلبها يرتجف من الفرحة، تضحك، تبكي، نزلت إلى الطريق هائمة، شاردة الذهن لتنتبه على صوت نفير إحدى السيارات كادت تصطدمها.

في المنزل ارتدت أبهى الثياب وأوقدت الشموع على المنضدة وجلست تحتضن بطنها بكلتي راحتيها، كأنها تضم وليدها الذي لم ير النور بعد وتتلهف مجيئه ورؤيته.

يفتح سالم الباب عائدًا من عمله كمهندس في أحد المواقع فيجد الزينة معلقة بالمنزل، وأنوارا خافتة تنيره فيبتسم و ينادي قائلاً:

. منال أين أنت؟

من غرفة الطعام تجيبه:

. أنا هنا أنتظرك.

دخل ليجدها بانتظاره بكامل زينتها، و المائدة عامرة بأشهى المأكولات.

فتعجب وقال لها:

. اعذريني يا حبيبتي فهل اليوم مناسبة لم أتذكرها؟

تبتسم وتذهب تطوق عنقه وهي تتمايل في دلال أنثوي، قائلة:

. تحب الرقص أم العشاء؟

. طبعا الرقص.

على أنغام الموسيقى الهادئة يتعانقان، يتهامسان، يرتشفان من بعضهما ذائبين في بحور الهوى.

. ألن تقولي لي سبب ذلك الجو البديع.

. مفاجأة لن تصدقها.

. أخبرينى يا شهر زاد قلبي وملكة فؤادي.

همست في أذنه:

. أنا حامل.

أبعدها عنه متعجبا وعيناه متسعة الأحداق قائلًا:

. أتتحدثين بصدق؟

. أنا حامل نتائج التحاليل أظهرت ذلك.

احتضنها بقوة كاد يكسر ضلوعها من شدتها، وحملها ودار بها في الغرفة فرحا ووضعها على الأريكة بهدوء، مقبِّلًا لتلك البطن الحامل لوليده الغالي.

لم يكن يصدق أن حلم السنين سيتحقق وبعد ثمانية أشهر سيُرزق بمولود جديد يملأ هذا البيت حياةً وصخبًا، ذاع الخبر بين أهل العائلتين، فانهالت المكالمات للتهاني والمباركات.

انقضت الأيام سريعا لتصبح في شهرها الخامس راقدة على السرير في عيادة الطبيب يجاورها زوجها لرؤيته عبر أشعة السونار وسماع نبضات قلبه، تلك الدقات الهامسة التي راقت قلوبهم المتلهفة لاحتضانه، وأشعلت المحبة في قلوبهم انتظارا لهذا الصبي الجميل، فأصبحوا يحصون الأيام لقدومه، ومع اقتراب موعد ولادتها ثقل جسدها، و تحشرجت أنفاسها، فأصبحت لا تنام إلا جالسة مسندة الظهر على السرير، ولا تقم إلا بعد أن يمسك بيدها ليساعدها على النهوض، وارتداء ملابسها وحذائها فتقبل رأسه قائلة:

. أنت أفضل الأزواج.

. أنتِ أحلى نساء الدنيا وأم ولدنا القادم فبم سنسميه؟

. لا أعلم، حلمت أمس أني أنتظر محمود فما رأيك؟

. موافق لأني أحمد مجيئه لينير حياتنا.

جاء موعد ولادتها تعانى الآلام ، وسالم وجميع الأهل في الخارج يتمتمون بالدعاء حتى علا صراخ المولود، واستكانت أناتها بعد عناء، تهللت أساريره، وانسابت عبراته بسماع صرخة الحياة لوليده فلم يعد جنينا بل فردًا خرج إلى الحياة.

كانت يداه ترتجف لحمله يُقبل جبهته متأملا ملامحه منتشياً، مُسكر الرأس برائحته وملمس بشرته الملساء، ويداه الصغيرتان، وفمه الدقيق.

ثم أعطاه لزوجته فضمته إلي صدرها وأعطته ثديها فهدأ صراخه وأمسك بيده الصغيرة إصبعها ونام مسند الرأس على ثديها.

مع كل يوم يأتي ويمضى ينمو محمود وتتبدل ملامحه، يصرخ فتجاب مطالبه فى المأكل، والمشرب، تأخذه في صدرها يلتقم ثديها ويرتوي من لبنها وحنانها الدافئ، تداعبه، تقبله، ترفعه إلى أعلى فيتعالى صراخه فتهدِّئ من روعه، تبرز أول أسنانه الدقيقة لتنير فاه الفارغ، يخطو أولى خطواته.

فى يوم عيد مولده الثاني علقت الزينات والأضواء في كل أركان المنزل، توافد الأهل والأقارب من الكبار والصغار للاحتفال، مُلئت الطاولة بكعكة طُبع عليها صورته، يجاورها مختلف الأطعمة والمشروبات، ينبعث عبر مكبرات الصوت أغاني عيد الميلاد، يتسابق الأطفال للعب بالبالونات، والصراخ فزعًا بإفراغ هوائها، ضحكات، مباركات الحاضرين، صخب بيت عامر بالأحباب.

لحظة إطفاء شمعة عيد ميلاده تبحث عنه منال فتجده جالسا بمفرده في غرفته يلعب بسيارته متجهم الوجه شارد الذهن لا يجيل بصره عن عجلاتها عند الدوران، تناديه قائلة:

. محمود تعال محمود .. محمود

لم يلبِّ النداء! تقدمت منه بضع خطوات وأمسكت السيارة وأوقفتها فتعالى صراخه، حملته عنوة إلى الخارج باكيًا محاولا الإفلات منها للعب بسيارته، حول المنضدة اصطف الجميع للاحتفال، علا التصفيق، الغناء، تومض أضواء الفلاشات للتصوير، لم تزل الشمعة مضيئة، الأصوات عالية تطالبه بإطفاء شمعته لكنه غير عابئ، حثه والده مداعبًا له قائلًا:

. أطفئ شمعتك، لقد أصبح عمرك عامين، بالأمس كان مولدك جئت لؤلؤة ثمينة بين أحضاننا واليوم عيدك، جاء الجميع للاحتفال بك، أطفئ شمعتك .. أطفئ شمعتك.

أطلق صرخة عالية وأفلت من أمه واضعًا يده على أذنه، أُطفئت الشمعة وصمت الضجيج، عادت عجلات السيارة للدوران.

رن هاتف منال لاتصال سالم يخبرها بالاستعداد لحضوره والذهاب إلى الطبيب، الذي أخبرهم بعد القيام بفحصه وعمل مقياس السمع:

. اطمئنوا بعض الأطفال يتأخرون في الحديث لعمر الأربع سنوات لا داعي للقلق! ولمزيد من الاطمئنان توجهوا به إلى إحدى مراكز النطق.

جلس أيمن أخصائي التخاطب مع محمود بمفرده عدة دقائق سمح بعدها بدخول والديه، قائلا:

. أعلم أن ما سأقوله سيصعب عليكم استيعابه!

تسارعت خفقات قلوبهم، قالت منال بلهفة أم أضناها الألم على وليدها:

. أخبرني ما به؟

. ابنك يعاني من التوحد.

التقت نظراتهما في تجهم من هول ما سمعاه، دارت الدنيا برأسيهما، تساؤلات عديدة عصفت بذهنيهما، صمت، حيرة، أنفاس تتسارع، تنهيدات، حلوق جف ريقها، دقائق مرت كالدهر خرجت بعدها من صمتها، قائلة:

. لقد كان حمله وولادته طبيعيا فقط انتبهنا أنه لا يتحدث ولا يستجيب للتواصل واللعب معنا كغيره من الأطفال في مثل عمره، نكس رأسه وتلعثمت الكلمات في فمه لا تريد الخروج، قائلا:

. أعلم ذلك فهذه سمات الطفل التوحدي ينعزل عن المحيطين حتى مع أقرب الناس إليه.

شعر الاثنان بغصة تجتاحهما وحزن جاثم على صدريهما، جمدت أوصالهما وأبكمت ألسنتهما عن الحديث.

بصوت مبحوح متحشرج بالبكاء تحدث سالم:

. هل سيظل هكذا للأبد؟

. لا فمن الجيد أنه تم التشخيص باكرا ليتسنى لنا سرعة إخراجه من تلك الشرنقة التي يحيا فيها، كان وقع الخبر صادمًا على العائلة بأكملها، فخيم الحزن على قلوب الجميع.

بدأ جلسات مكثفة لجذب انتباهه للعالم المحيط به، وكسرالحائل الزجاجي الرابض وراءه، لإخراجه إلى الحياة، لكن استجابته بدت بطيئة، فارضا الحصار على والديه بصراخه الدائم عند زيارة أحد الأقارب، أو الأماكن العامة المزدحمة، فيعودا أدراجهما لذا امتنعا عن الذهاب إلا للأماكن الهادئة التي يفضلها.

في حجرة المعيشة وقف أمام المروحة يتابع دورانها، بسعادة بالغة محاولا إدخال أحد أصابعه بين الأسلاك التي تعزل الريشات الدائرة.

صرخت أمه وقامت من مجلسها ممسكة بيده لتُنحيها بعيدًا حتى لا يتأذى، علا صوته بالنحيب محاولًا الاقتراب مرةً أخرى فعاودت نهره، هرول إلى دولاب ملابسه وجلس فيه، تبعته لتجده واضعا يده على أذنه ليصمها عن سماع صوتها، فقط البكاء هو سلواه الوحيد في عالم لا يحيا به سواه، تفتقر فيه شفاه التفوه بالكلمات وقول ما يجيش في صدره من عباب، وإخبارها أن تكف عن الصراخ والتحدث بهدوء؛ لأن أذنه تسمع الأصوات عالية حادة فتؤلمه، صراخه لغته الوحيدة للتعبير، كلماته مبعثرة في عقله لا يستطيع اللحاق بها فتهرب منه، لا يدري خطأ أفعاله، يحتاج أحضانًا دافئة تبعث في نفسه الحنان والأمل في عالمه الوحيد لعله يصبح كما تتمنى.

نظرت إليه بشفقة معنفة نفسها على تصرفها قائلة له:

. يا ويلي ماذا فعلت؟ آسفة أعلم أنه ليس إثمك وأنك غير مدرك لكن أحبك، أنت أملي في الحياة التي قضيت سنوات أتمناه.

وأخرجته وضمته إلى صدرها تقبله وتمسح على رأسه حتى هدأت نفسه وتوقف عن النحيب وأبعد يده عن أذنيه.

***

وقفت في شرفتها تتنسم الهواء متجهمة تتمتم بكلام غريب فسمعها سالم وجاء إليها متسائلًا:

. ما بك يا حبيبتي؟

شعر أن بها مكروهًا وضمها لصدره قائلًا:

. لا أتحمل رؤيتك هكذا، ما بِك؟

صمتت ولم تجب.

. أرجوك تحدثي.

خرجت من صمتها قائلة:

. أنا تعبت لم أعد أقدر أن أراه هكذا أمامي، فعام مضى منذ أن بدأنا الجلسات ولم يتحدث ما زال يشير إلى الأواني عند إحساسه بالجوع، أو العطش، أنا حبيسة مثله في عالمه، ألازمه كظله أخشى عليه من إيذاء نفسه، إلى متى؟

. الصبر والأمل؟ فلا حيلة بأيدينا، يوما ما سيصبح أفضل فقلبى لا ينضب أمله، وبعد انقضاء

الصعوبات سننسى أوجاعنا كأنها لم تحدث ونتذكر أن طفلنا مميزٌ أفضل من غيره، فأمسك يدها بقوة قائلًا:

. ثقي بكلامي.

جالت تلك الكلمات بخلدها عند رؤيته على المسرح يتسلم جائزته، شعرت بالخزي من نفسها لعدم ثقتها في كلام زوجها، فلولا هذا الرجل بجوارها لما استطاعت الصمود طيلة تلك الأعوام.

أمسكت بيده هامسةً بأذنه قائلةً:

. آسفة!

. لم الاعتذار؟

. لأني لم أصدق أن حديثك سيتحقق ويصبح شابًا أفتخر به، اليوم جنيت ثمرة الأعوام السابقة من البكاء، والسهر، والألم فموهبته وتفوقه في الرسم كانت السبيل لخروجه من الشرنقة وانطلاقة للعالم.

. لا تعتذري يا محبوبتي وقرة عيني لأني أيضا لم أكن أتصور رؤيته هكذا، كنت أبث داخلك أملا أفتقده، حلما لم أتخيله، أمضيت ليالي أبكي وأخبئ دموعي عنك حتى لا تتألمي، فنظراتك الحزينة كانت تدمي قلبي عليكما، وبرغم ذلك سعدنا بلحظات لا أقدر أن أنزعها من خلدي باتت السلوى لآلامنا.

أتذكرين عندما استدعانا أيمن إلى غرفته قائِلا:

. أبشركم أنه أصبح يعي ما يقال ويطيعه رغم عدم تفوهه بأبسط الكلمات، ومؤهلا لإلحاقه بإحدى الحضانات المتخصصة في التعامل معه لدمجه مع غيره من الأقران، ومستمر معي في تنمية مهاراته وتعلم لغة الحديث.

كان طفلا أخرس يغلق عينيه ويفتح الأخرى، مدقق النظر فى شيء لا تدركه، كثير الحراك لا يستقر في مكان واحد، باءت كل محاولاتهم لتهدئته بالفشل، حتى أعطته إحدى المعلمات بعض الأوراق وأقلام التلوين وكأنه وجد ضالته المفقودة.

أمسكها واستغرق في رسم أشكال دائرية وخطوط عشوائية بضع دقائق ثم يدور ويلتفت حول نفسه ولا يلبث أن يعود مرة أخرى لأوراقه متهلل الأسارير فرحا، وبمرور الوقت أصبح يقضي وقته في الرسم فيهدأ جسده وتهيم روحه في عالم آخر؛ لتتحول خطوطه العشوائية إلى لوحات فنية تستحق الإعجاب، ليصبح ساحرا بقلمه يبهرنا برسم أروع اللوحات المنتقاة من كل شيء يحيط به ويؤثر فيه.

في الخامسة من عمره جلس في غرفته يبحث عن أوراقه فوق المنضدة فلا يجدها، يتجول في الغرفة حزينا باكيا حتى أطلق بين أناته كلمة واحدة:

. ورقة.

لم يصدق سالم سمعه، ظن أنه توجس فنادى على زوجته، وجلس الاثنان بجواره يترجينه بإعادة ما قال فلم يستجب، فتركاه بمفرده ولم يلبيا مطلبه ليعيد نداءه قائلا:

. ورقة.

احتضناه بقوة مقبلين كفيه الصغيرة، كان صوت الكلمة على أسماعهما كالماء المنهمر على النار المتأجج لظاها بداخلهما فأخمدته.

ومنذ ذلك اليوم لم يفرغ المنزل من الأوراق والألوان؛ لتسطع موهبته وتبهر الجميع.

اتكأ أيمن على كرسيه لرؤيته ممسكًا بجائزته، متزن الجسد واثق النفس بعدما وجد ضالته المنشودة وأصبح بإمكانه وصف العالم المحيط على الورق، فتحكم في حياته وغيَّرها، لم يصدق أن الشاب الواقف أمامه الطفل الذي أتى إليه منذ عشرين عاما متعثر الخطوات، شارد الذهن، كثير الحراك، صامت يبعث بداخله الإحباط.

جلس محمود يتمايل يمينا ويسارا يقابله أيمن واضعا على المنضدة التي تفصلهما بطاقات مصورة مشيرا إليها قائلا:

. تحدث يا محمود: آكل، أشرب، أنام.

ظل يكرر... ويكرر.

ومحمود يتمايل غير عابئ بما يُقال.

حتى خرج عن صمته بصوت طفولي حاد النبرة قائلا:

. آكل.

اعتدل في مجلسه وطالبه بإحضار بطاقة الطفل الذي يأكل ثم باقي البطاقات، فأعطاها له، تهللت أساريره فرحا بما فعله، وصفق له، واحتضنه متسائلًا.

تُرى من يحتاج للآخر، ويمحو ألمه، ويسعده؟ هل محمود بكلماته التي ينطقها، وتزهو بها شفتاه، وتعبر عن مطالبه؟أم هو ليزهو ويسعد بنصره لمحو ما بداخله من هموم وأعباء؟ فمعه يتحرر من جسده الضخم المترهل ويعود طفلا نقي الفكر والفؤاد.

أحيانا يغار لعدم شعوره بدنيانا المكتظة بالصراعات، وأحيانا يشفق عليه لوحدته، فكلاهم يحتاج للآخر.

همست منال بأذن زوجها قائلة:

. أريد أن أخبرك شيئا يفرحني ويؤرقني.

بانتباه وانتظار لسماع حديثها قال:

.كلي آذان صاغية.

. أنا حامل.

. مبروك علينا، ولم يؤرقك؟!

. أخشى أن أهمل محمود.

. أنا بجوارك سأعتني به، لن أتركك، افرحي سننجب طفلا آخر لكني أريدها بنتا تشبهك.

توجه محمود إلى أبيه لمداعبته، فقال له:

. أمك ستنجب طفلا سيكون لك أخ أو أخت.

ثم حمله فوق كتفيه، تتعالى ضحكاته فرحا

تحققت أمنيته وجاءت ملك طفلة جميلة رقيقة الصراخ تشبه والدتها في جمالها الهادئ، حملها والدها وقربها من أخيها قائلاً:

. ملك أختك قبِّلها.

نظر إليها بتعجب لوجود هذا المخلوق الصغير بينهم، مال برأسه طابعًا قبلة على خدها الوردي مقلدًا أباه، وذهب لغرفته يتابع رسم لوحاته، كان أكثر ما يزعجه صوت صراخها المستمر الذي يصم آذانه عند سماعه، توالت الأيام وأصبحت ملك في الثالثة من عمرها، فتاة مدللة من أبويها، مشاكسة لأخيها، تقطع وتكسر ما يلهيه عن اللعب معها.

في أحد الأيام عند خروجه من الغرفة، أمسكت لوحته ومزقتها إربا، عند عودته ورؤيتها غضب، قذفها بقوة فارتطمت رأسها بالطاولة، سالت الدماء تخضبها، ففزع والدها وحملها إلى المستشفى لتحاك بضع غرز غائرة في جبهتها حتى كبرت وصارت بالغة ريانة الوجه، رشيقة القوام.

جاءت اليوم للاحتفال بتسلمه لجائزة الدولة التقديرية في الفن والإبداع لرسم لوحات فنية أثرت الفن التشكيلي برغم شرنقة مرضه الملازم له منذ طفولته.

فكم كانت بلهاء لا تدري بطبيعته، تغار منه، حتى أتى يوم عائدة من مدرستها،في الثامنة من عمرها مهرولة إلى غرفتها باكية تتبعها والدتها متسائلة:

. ما بك يا ملك؟

. يزداد بكاؤها، ومن بين حشرجة أنفاسها اللاهثة تقول:

. أصدقائي في المدرسة لا يتحدثون معي.

. لماذا؟

. كذبت عليهم وأخبرتهم برسمي لوحات مثل أخي.

. لم فعلت ذلك؟

صاحت بصوت عال:

. أريد أن أكون مثله كي أنال الاهتمام منكم.

بهدوء وتعقل وابتسامة حانية أخذتها بين أحضانها تهدئها قائلة:

. أنا أحبكما فكلاكما أبنائي، فقط أخيك يحتاج لعناية خاصة أكثر منك، أمنحها له، لكنك فتاتى المدللة، أميرتي الصغيرة، قرة عيني، ابحثي عن جوهرة تحبينها بداخلك، تنير وجدانك وتجعلك إنسانة مميزة ولا تقلدي غيرك.

استكانت نفسها وهدأت لحديث والدتها قائلة:

. حاضر يا أمي أحبك كثيرا.

منذ ذلك اليوم سطع شعاع جديد بداخلها وتفهمت طبيعة أخيها وأصبحا مقربين من بعضهما، تذهب معه لتمرين السباحة، تحضر له أوراق وأقلام رسمه، تشجعه، وتفتخر بلوحاته أمام أقرانها.

علا صوت المذيع مناديا باسمه عبر الميكرفون، صعد الدرج المؤدي للمسرح تتابعه نظرات أمه بحديث تلعثمت به شفتاها أمام الحشد الغفير وجهرت به أساريرها.

فهو طفلها الذي علمها رؤية الحياة بصورة مختلفة، فأصبحت جميلة مهما كانت بسيطة، والمعنى الحقيقي للبراءة عند النظر إلى عينيه، وتقبل اختلافه والصبر والإصرار، لو أرادت تعداد ما أنجزته لما انتهت، وسوف يبقى طفلها مهما كبر، ويكفي أنه المعجزة التي قلبت حياتها رأسا على عقب.

تتوقف الموسيقى العالية، وتهدأ الأضواء المتراقصة الملونة، يعم المسرح الهدوء لسماع كلمة يلقيها أمام الحاضرين.

تملكه الارتباك، تسارعت دقات قلبه لرؤية الحشد الجالس محاولًا انتقاء الكلمات ليخرجها من فمه ثقيلة كأنها تأبى الحراك من مكانها، قائلا:

. لا أدرى ما أقول فجميع الكلمات تراوغني لكني أركض لأمسك بها لأهدي بعضها لأمي وأبي وفاءً لما فعلاه من أجلي، فلم يخبئاني بين الجدران شفقة من أعين الغرباء، بل أطلقا سراحي لأمزق شرنقتي، وأحلِّق مكتشفا عالمي الفسيح لأعي كل جديد، كنت زهرتهم الزابلة التي تدمي القلب لرؤياها فارتوت من إكسير المحبة الدافق بين جوانحهما، فازدهرت أوراقها وفاح عطرها.

إلى أختي الصغيرة أعتذر لك فقد سلبتك طفولتك، فكنتِ دومًا الحارس لي من أفعالي الهوجاء.

إلى أستاذي أيمن الذي علمني أولى كلماتي، لكل من أخذ بيدي من الظلام إلى النور، تعلمت منكم الإصرار والتحدي، وتعلمتم مني الصبر وتقبلي كإنسان مختلف.

أحبكم إلى آخر أنفاسي وأعتز بكم دائما.

تتراقص الأضواء والموسيقى لتملأ المسرح بدويِّ التصفيق في أرجاء القاعة، تغمر الوجوه عبَرَات الفرح، تتمزق خيوط الشرنقة وتحلق الفراشة عاليا.

الدرويـشة

كان المكان يمتلئ بالزحام، فالحديث المتبادل بين الجالسين ومشاهدة التلفاز الوسيلة المتاحة لدأب الملل في الجلوس في غرف الانتظار بالساعات، بتكاسل وعدم اكتراث تركت الفتاة الجالسة خلف المكتب في صالة الاستقبال هاتفها لتدوين اسم سارة في أوراقها قائلة:

. اجلسوا في الاستراحة حتى يأتي موعد الدخول.

جلست تجاورها والدتها ومعلمتها، على أحد المقاعد تمسك الفحوصات الطبية وتشاهد الصور المتتابعة التي التقطها جهاز الرنين لتلافيف رأسها من الداخل وتعرضها على معلمتها في محاولة يائسة لفك طلاسمها ثم اكتفت بمتابعة التلفاز.

لم يزل يتوافد المزيد من المرضى في عيادة الطبيب عندما عقدت أم سارة يدها أمام صدرها منتظرة الدخول وقد هامت نظراتها في وجوه الجالسين المتناثرين على المقاعد، كأنها تحاول قراءة حكاية كلٍ منهم بين صفحات ملامحه، حتى تململت من الجلوس وغادرت إلى الشرفة تطالع المارة، فوجدت إحدى السيدات المسنات تتكئ على عصاها تشتكي لها وجودها منذ فترة وقدماها تؤلمانها، والفتاة التي تدوّن الأسماء لا تريد إدخالها للطبيب، متعللةً بأن اسمها لم يأت دوره بعد، ظلت تهدئ من روعها وتربت على كتفيها وهي تقول:

. هوني عليكِ فإن ابنتي مُتعَبَة وتجلس منذ عدة ساعات ولم تترفق بها.

بنظرة من أسفل نظارتها ذات الإطار البني والزجاج السميك، رنَت إلى الجالسين ثم قالت:

. أتلك ابنتك التي ترتدي العباءة الزرقاء.

. لا بل هذه معلمتها، ابنتي بجوارها.

بقلب يهدر ألما نظرت إليها متسائلة:

. ما بتلك الفتاة الجميلة؟

زمت شفتيها بأسى يحمل جام أوجاعها، فلم تكن سارة قد بلغت الثانية عشرة من عمرها، وأصغر أشقائها الثلاثة لم يزل يحبو في مهده حين توفي والدهم مخلفًا عائلته الصغيرة تعيش الفقر والحرمان، كانت والدتها العائل الوحيد للبيت تبيع الجبن واللبن في السوق لترعى أبناءها، حين تفوقت سارة في تحصيل العلم دون بقية أشقائها، فإذا أرادت والدتها عقابها منعتها من الذهاب للمدرسة، أما أشقاؤها فلم يحظوا من التعليم إلا بكتابة أسمائهم بخط ركيك وتركوا مدارسهم من أجل توفير النفقات، والعمل في زراعة الأراضي، مثل بقية أهالي العزبة التي لم تكن كبيرة وبها بضع عشرات من البيوت مبنية من طابق واحد، يعمل أهلها في الزراعة من قبل مشرق الشمس وينتهي بمغيبها، ومكانهم المفضل للسمر عتبة البيوت حيث الهواء البحري، والنوم ساعة القيلولة ولعب الأطفال.

مع إشراقات الصباح عبر طريق غير ممهد كانت رحلتها اليومية مع زميلاتها تتشابك أياديهم للعبور فوق ماسورة الصرف الصحي، التي تصل بين الضفتين للوصول إلى المدرسة وبدء يوم دراسي جديد ينتهي عند الظهيرة، لكن هذا اليوم بات مختلفًا عن غيره بل أسعد أيام حياتها.

فعند انتهاء الفسحة اصطفت جميع التلميذات والمعلمين في الفناء لإعلان أسماء بعض الطالبات وتكريمهن، كانت سعادتها لا توصف بسماع اسمها من بينهن، فسارت بخطوات متعجلة لتصافح معلميها وتتسلم شهادة تقديرها وسط تصفيق من الجميع.

بطرقات متعجلة على الباب يأتيها صوت والدتها مستنكرة:

لما العَجَلة أنا قادمة؟

فتحت الباب لتجد سارة تطوقها بذراعيها وتخرج لها شهادة تقديرها من الحقيبة، فأمسكتها وقد بدا عليها أمارات التعجب متسائلة:

. ما هذه الورقة؟

. ليست ورقه بل شهادة تقدير لأني متفوقة في دراستي.

. مبروك يا حبيبتي عقبال شهادة الثانوية بالمجموع الكبير.

. يا رب يا أمي.

أخذ أخواتها يتجاذبون رؤيتها فخشيت من تمزيقها ونهرتهم لتضعها في مكان آمن.

حين بدأت الشمس رحلة الغروب وانحسرت خيوطها الخفية لتتوارى خلف البيوت في العصاري جلست أم سارة على أعتاب بيتها ترتشف كوبًا من الشاي فجاءتها أم حسين تتشدق معها بالحديث:

. أين عروستنا الجميلة؟

. تذاكر بغرفتها.

. دعيها تترفق بنفسها.

. فهي تتمنى أن تلتحق بالجامعة ولا أقدر أن أمنعها عما تريد.

. ومن أين ستأتين بالمال؟ من الجبن واللبن!

. وما عيبهما رزق حلال!

. لم أقصد لكن الأفضل تجهيزها به، وكل فتاة في النهاية لبيت زوجها لقد جاءني ابن الحاج سليم تاجر الغلال ويطلبها للزواج وسيُحضر لها ما تريد، فهنيئًا لها فكل فتيات العزبة يتمنينه.

. سأخبرها أولا.

تمتمت قائلة:

. كفى تدليلا فأنت والدتها، هذه فرصة لا تضيعينها.

. أعدك أن أحاول معها.

ظلت شاردة الذهن فلم يكن ذلك أول عريس يطرق بابهم ويطلبها وترفضه وتتمسك بتعليمها، فمنذ أن تفجرت أنوثتها لم ينقطع خطَّابها من أبناء العزبة، لكنها ترفض من أجل تحقيق حلمها بدخول الجامعة، وتخشى أن تجبرها على الزواج فتصبح تعيسة أو تتركها فتصبح عانسًا.

لاحظت سارة شرود والدتها ورغبتها في الحديث فقالت:

. أخبريني ما تريدين قوله.

. أم حسين.

. ما لها؟

. جاءت لك بعريس.

. أنتِ تعلمين جيدا أن المذاكرة أهم عندي.

. لكن يا ابنتي إنه يريدك بالاسم.

. لا يهمني.

. أخشى أن يمتنع الشباب عن طلبك للزواج وتتقدمين في العمر.

. أتريدين الخلاص مني.

. لا لكنه يريدك، خسارة لا تضيعين تلك الفرصة.

. اتركيني لأنهي دراستي بعد ذلك سأفعل ما يحلو لك.

غادرت غرفتها مسلوبة الإرادة كعادتهما عند الحديث في ذلك الأمر لتحضير طعام العشاء لأخواتها الصغار قبل أن يأووا إلى الفراش وإعداد الجبن واللبن للذهاب لبيعهما في الغد "بسوق الثلاثاء" حيث يجتمع أهالي العزبة وما يجاورها لشراء ما يحتاجون إليه، عندما جاءتها لتخبرها برغبتها في الذهاب فرفضت قائلة:

. لا أريد تعطيلك عن المذاكرة

. لن أتأخر سأعود سريعا بعد الانتهاء من البيع.

لم تمل الرجاء والإلحاح حتى وافقت على ذهابها.

مع أولى نسمات الصباح الباردة مضت إلى السوق بحملها ثابتة الخطى مختالة ترج الأرض بشعر أسود يظهر مقدمته من أسفل طرحتها، وغمازتان حين تظهران وتختفيان فجأة تُحددان أجمل ابتسامة يفتر عنها ثغرٌ تُلقي به تحية الصباح على الجميع، كان الهدوء يعم السوق إلا من نداء البائعين لجذب المارة للشراء.

عندما ترددت الصرخات التي ينشق عنها فضاء الريف الواسع أحيانا، فتدوي بطريقة مفاجئة ومرعبة ومستغيثة دون أن تعرف مصدرها، لكنك لابد أن تدرك منها أن شيئًا مهولًا قد وقع، لابد حينئذ أن تفيق فتجد نفسك تجري لتنجد، أو على الأقل لتعرف الخبر.

فعند رؤيتها مسجاة فاقدة الوعي يهتز جسدها بارتعاشات متتالية كمن صعقه تيار كهربائي دون توقف ابتعد البعض خوفًا، وآخرون واقفون يتابعون من بعيد.

كانت والدتها تنظف الطيور بعد ذبحها عندما ترامى إلى أذنيها أصداء الصراخ وجاءها أخوها على عجالة ليخبرها:

. سارة فقدت وعيها في السوق.

ضربت الأم على صدرها وتركت ما بيديها وهرعت إليها، زائغة العينين بين أناس واقفين يتابعون ما يحدث ونظرات التوجس والخوف تملأ أساريرهم، وبين زهرتها المتفتحة التي ذبلت بين عشية وضحاها أمام عينيها لتضمها بين أحضانها، كان قلبها ينتفض بين ضلوعها مع كل رعشة لها، حتى أفرغ جسدها ما بجعبته واستكان فى سبات عميق لبضع دقائق أفاقت منه رافعة أهداب جفونها المثقلة، تتحدث بشفاه تقف الكلمات على أعتابها مترنحة لا تريد الخروج:

. ماذا حدث جسدي يؤلمني؟

. لا شيء يا حبيبتي أنتِ بخيرٍ كان لا بد أن تسمعي كلامي ولا تذهبين.

. كنت أريد أن أُريحَكِ قليلًا.

مالت على رأسها تقبِّلها قائلة:

. أنا فداكِ يا بنيتي.

اجتمع أشقاؤها حولها لمساعدتها على النهوض وسط تجمع أهل العزبة، وانفض الزحام وعاد كل شيء كما كان، البائعات ينادين على بضائعهن المختلفة، والسيدات والرجال تبيع وتشتري والأطفال تمسك بجلباب أمهاتهن.

في المساء لفت طرحتها السمراء حول رأسها وذهبت لأم حسين تبث لها شكواها لما حدث لابنتها فى السوق وتطلب منها اسم طبيب تذهب له، سمعتها بآذان صاغية وحواس منتبهة حتى انتهت، فبادرتها قائلة:

. ابنتك لا تحتاج إلى طبيب.

. لما تقولي ذلك؟

. لأن مرضها يحتار فيه الطبيب ولا يعرف دواءه.

بعيون حائرة تتعجل حديثها ولسان يتوسل بقلق:

. أخبريني ما بها.

. اللهم احفظنا معمول لها عمل.

فشهقت وانفزعت من قولها ودارت الأرض برأسها قائلة:

. ومن فعل ذلك فجميع أهالي العزبة يحبونها وليس لنا بينهم عداوة.

مصمصت شفتيها مكملة حديثها:

. لا تعلمين ما في القلوب، فالمنافقون كثيرون أمامك بحديث ومن خلفك بآخر، وابنتك متفوقة وجميلة وهذا يجعل الكثيرات يغرن ويفعلن ما يؤذيها.

. وماذا أفعل؟

. لا يوجد غير الحاجة يسريه الشهيرة بـ "الدرويشة" تُعالج بالقرآن، ما من أحد طرق بابها وخيب رجاه.

. لابد أن أذهب إليها.

ودعت أم سارة جارتها عائدة إلى بيتها تعصف الهواجس بذهنها، لتفتح سيالة نقودها

التي لا تبرح صدرها وتخرج بضع جنيهات تحويها.

في طريق ترابي غير ممهد على جانبيه المقابر، اصطفت جموع الحاشدين الآتية من كل العزب المجاورة لقراءة السلام على السكان الراقدين تحت الثرى، وافترش الأرض أمام إحدى البوابات التي تقطن بداخلها غرفة الحاجة يسرية وشهرتها "الدرويشة" التي ذاعت بركاتها على ألسنة الجميع، فمن يطلب الشفاء لمرض حار فيه الأطباء، ومن تأخر زواجها، أو تريد فعل سحر أو تبطله لأحد تأتيها فعندها الدواء لكل داء.

قالت سارة بسأم:

. إلى متى سننتظر يا أمي فالزحام شديد.

. لا حيلة بأمرنا.

ظلتا جالستين على الأرض تلفح وجهيهما الشمس، يتظللان بأيديهما، ويستمعان لبركات الدرويشة على ألسنة المحيطين، حتى انحسرت الشمس من السماء ولملمت أطراف ثوبها، وجاء موعد دخولهما.

بخطوات مثقلة مملوءة بالريبة لعقل يعصف به هواجس وحكايات عن تلك السيدة وذلك العالم المجهول الذي تصلنا به عبر طلاسمها وأحجبتها، سارا في الباحة المؤدية لغرفتها وأغلق الباب وراءهم.

كانت إنارة الحجرة خافتة بالكاد يرون فيها وجوه بعضهم، تعثرت خطواتهم بسماع صوت يدعوهم للجلوس. بأعين مفزوعة وأسنان تصتك التفوا للبحث عنه فلم يجدوا أحدا، فظلت ألسنتهم تستعيذ من الشيطان الرجيم حتى عاد الصوت يردد:

. اجلسوا لما الوقوف!

أفرغت أفواههم عن صرخة مدويه لرؤيتها تقف أمامهم وكأن الجدران انشقت وأخرجتها لتطل عليهم بوجه يشع منه نور، ترتدي جلبابا واسعا أبيض ويتدلى من رقبتها دلايات من الأحجار الكبيرة تستقر

على ثدييها العالية. وعلى معصمها اصطفت كثير من الأساور، ومسبحه لا تفارق أصابعها، لتجلس وراء طاولة متوسطة الارتفاع تضع عليها المبخرة ويجاورها خادمها.

عندما همت والدة سارة في التحدث أوقفتها برفع يدها أمام وجهها للصمت وظلت تتمتم بكلمات مبهمة ويدها تسبح والأخرى تلقي بالبخور فتشعل سحبا بيضاء لتعبئ الغرفة حتى قالت بلهجة آمرة:

. يا فاطمة ضعي النقود في ذلك الصحن لشفاء ابنتك مما فيها من كرب.

تعجبت من معرفتها باسمها وبرعشة مدت يدها لتضع النقود ولسانها يستعيذ من الشيطان.

الأنفاس تعلو في الصدور، الصمت يحيط بالجميع، عندما قامت من مجلسها تتجول حولهم تتفحصهم بنظرة هادئة وتمد يدها لتضعها على رأس سارة ولسانها يرتل بآيات من القرآن فزال عنها توترها واستكان صدرها وأسدلت جفنيها وصدر منها صراخًا مبحوحًا كفحيح أفعى تهم بالفتك بفريستها، وانتفض جسدها وتصلبت أطرافها فخبطت بيدها على صدرها قائلة:

. ابتعد عنها يا عدو الله لا تؤذيها.

ظلت تكررها حتى سقطت من مقعدها على الأرض وقد شخص بصرها وتشنج وجهها وجسدها، وسال الزبد من فمها محملا بالدماء كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة، فحضر خادمها جاثيا على ركبتيه يمسك كلتا يديها لمنعها من الحراك، حتى هدأت فتركتها جسدًا ذابلًا بلا حراك وعاودت الجلوس على مقعدها.

لم تتوقف والدتها عن النحيب وصفع خديها وتحريكها مرددة:

. أفيقي يا سارة لا تتركيني سأموت بدونك.

نظرت لها غير مكترثة قائلة:

. ابنتك ستسترد وعيها بعد قليل.

بنبرات حائرة سألتها :

– ما بها طمئني قلبي؟

. ابنتك تُعانى من عمل سحري بالمرض و الفشل.

. ومن تجرأ على فعل ذلك.

. الستر يا أم سارة فالأهم إيجاد العمل وإحضاره لشفاء ابنتك.

لقد كشفت عن مكانه فوجدته بمقابر بلدتكم بالقرب من البوابة الحديدية أبحثي عنه و أحضريه.

بصوت واهن وأصابع تمسح دموعها قالت:

. أمرك يا درويشة .

بنبرة حازمة أمرت خادمها:

. يا مسعود ساعدها في إخراج الفتاة.

اقتربت تتحسس الحياة في ذلك الجسد النحيل المخضب بالدماء وتتحامل على جسدها المنهك يعاونها الخادم لإخراجها إلى الباحة لتظل أمها جالسة بجوارها تبكي وتمسح دموعها بأطراف طرحتها.

ذهبت إلى المقابر تتعثر الخطى مستعيذة من الشيطان بحثا عن العمل المدفون حتى وجدته فأسرعت الخطى إليها.

استقبلتها الدرويشة بترحاب وأخذته منها لتضعه بوعاء الماء لمحو طلاسمه ولسانها يرتل القرآن ثم نظرت إليها وقد تهللت أساريرها.

. أهنئك بشفاء ابنتك لقد أبطل السحر لكن احرصي على التحصن بقراءة الأذكار في الصباح والمساء، وهذه زجاجة ماء مقروء عليها تستحم بها بعيدا عن دورة المياه.

أخذت الزجاجة بحرص ولسانها يتمتم لها بالدعوات لشفاء ابنتها وعند عودتها أمام باب البيت سمعت حشرجة صوتها.. فجلست على الأرض تبكي.

مع دقات انتهاء جرس الحصة الأولى فى الفصل حضرت زينب معلمة اللغة العربية لتلقي تحية الصباح على تلميذتها، لم تكن معلمة تشرح الدروس وتغادر فصلها لكنها تشع البهجة ومثل الأم تبث الحنان والحزم إذا تطلب الأمر برغم حداثة عمرها الذي لم يتجاوز أعتاب العقد الثالث، قامت بتدوين أسماء الحاضرين والغائبين عندما لاحظت غياب سارة منذ مدة، لم تستطع أن تخفي دهشتها فسألت زميلاتها فأجابتها هناء بنبرات من الأسى:

. لقد زاد تعبها.

رددت بلهفة قلب يود الاطمئنان عليها:

. ما بها؟

. تتشنج وتفقد وعيها، فلم تعد تقدر على المذاكرة، ووهن جسدها وتخشى الخروج من البيت.

اتسعت أحداقها متعجبة وأحست بضيق شديد لما سمعته قائلة:

. أريد رؤيتها أتعلمين مكان بيتها.

. نعم.

. بعد انتهاء اليوم الدراسي خذيني إليها.

طرقات على باب البيت يفتح أحد أشقائها متسائلا:

. من أنتِ؟

تقدمت هناء من خلفها وأبعدته، ودخلت بخطوات سريعة لتفسح لها مكانا للجلوس على إحدى الكنبات منادية على والدتها:

. أين أنت يا أم سارة، معي أستاذة زينب معلمتنا بالمدرسة تعالي سريعًا.

أجابت نداءها بصوت عالٍ:

. سأحضر حالًا.

جاءتها على عجالة تجفف يدها بجلبابها من غسيل الأواني لتصافحها على استحياء مرحبةً بها:

. سارة تحبك كثيرًا ودائما تحدثني عنك.

. وأنا أيضا أعتبرها ابنتي أخبريني ما حالها؟

. سيئة جدا وفعلت ما قالته لي الشيخة لكن بلا فائدة فالسحر يتجدد كلما أبطلناه.

ورفعت يدها للسماء بالدعاء وقد ترقرقت العبرات في عينيها منحدرة رغما عنها قائلة:

. يا رب انتقم ممن تكره ابنتي.

. لكن لم لا تذهبي إلى الطبيب؟

. أنا لم يعد معي مال فقد أنفقت كل ما أملك في كل مرة أذهب للدرويشة.

. لا تقلقي يا أم سارة سأتحمل جميع النفقات لكن أين هي؟

. نائمة سأوقظها لك.

ذهبت تخبرها بصوت هامس:

. سارة استيقظي، أستاذة زينب جاءت لرؤيتك.

فركت عينيها وتهللت أساريرها وهذبت شعرها وذهبت لتستقبلها في عناق حار قائلة:

. لقد اشتقت لك ولكل زملائي بالمدرسة.

. ونحن أيضًا، أعدك بعودتك قريبا بيننا.

نهضت من مجلسها تهم بالمغادرة عندما حضرت أم سارة تحمل كوبًا من الشاي وتأبى ذهابها فاعتذرت على وعد بلقاء قريب للذهاب إلى الطبيب.

في حجرة الطبيب بعد الانتهاء من فحصها عاد خلف مكتبه يخط عدة فحوصات لإجرائها فسألته المعلمة:

– ما بها؟

– لا أقدر أن أحدد إلا بعد عمل رسم المخ وأشعة الرنين.

غادروا والحيرة تعبث بعقلهم لعمل الفحوصات.

كانت قدميها تتشبث بالأرض دءوبة الخطوات، وأصابعها تتشابك في عراك حار، حينما حضرت الممرضة لتأخذها لغرفة الفحص، تنزع عنها ملابسها، لترتدي لباسا خاصا، وترقدها على طاولة الجهاز الذي حملها بداخله كمن يُساق إلى مقبرته فسرت قشعريرة ببدنها وتزايد خفق قلبها فأسدلت جفنيها مرددة بعض آيات من القرآن.

علا صوت الفتاة الجالسة في مكتب الاستقبال تنادي باسم سارة فاستأذنت والدتها من السيدة الجالسة معها لترافق ابنتها والمعلمة إلى غرفة الطبيب.

تلاقت أعينهم في توجس وهو يطالع رسم المخ وصور الأشعة عبر الضوء النافذ من الجهاز الموضوع على مكتبه، ثم يفتح التقرير المصاحب ليقرأ ما كتب فيه، كانت القلوب حائرة لمعرفة ما بها، فالتوتر والقلق وصل لذروته بداخلهم، فحلمها في أن تكمل تعليمها قد بدأ فى التلاشي منذ مرضها لكن الأمل لم يزل يداعبها ولم يتملكها اليأس، لم يتوقف لسان والدتها عن التمتمة بالدعاء بأن تُشفى وتسترد عافيتها بعدما خبت نضارتها وفقدت شهيتها فأصبحت تقتات القليل من الطعام ليعينها بالكاد على الحياة.

خلع الطبيب نظارته وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تزين وجهه يتحدث بصوت هادئ:

ـ لِمَ القلق؟

خرجت زينب عن صمتها بنبرة صوت متعجلة:

. نريد أن نطمئن.

. لا شيء يستدعى القلق.

. أيعني ذلك أن الفحوصات سليمة؟

. لا! لكن ما بها يوجد له علاج.

تحدقت عيناها تعجبا قائلة:

. أنا لا أفهم شيئا.

. لا تقلقي من مرض له دواء يشفيه.

انتابهما قلق بالغ لحديثه المبهم وعدم تصريحه المباشر بنتائج الفحوصات فاق الحد وتحدثت سارة وقد تملكها اليأس، وبإحساس الغريق الذي قرب على الهلاك ولم يعد يرى ضوءًا يساعده على التشبث بالحياة ويتأهب للاستسلام قالت:

. أخبرني بحقيقة مرضي.

. هدئي من روعك أنت بخير فكل ما بك كهرباء زائدة عن الحد الطبيعي بالمخ تحدث لك تشنجات وإغماء وصداع.

بدت على وجه سارة أمارات السعادة لما سمعته وكأن يدا امتدت لتنتشلها من بين أمواج البحر الهائج بداخلها قائلة:

. أتعنى أن جسدي خالٍ من السحر.

انفرجت أساريره بضحكة عالية أذابت الجليد الذي بدا بداخلهم قائلا:

. من خدعك وقال ذلك.

. الدرويشة.

. لا، أنتِ مريضة وشفائك في الدواء الذى سأكتبه لكن لابد من أخذه بانتظام حتى تعودي أفضل مما كنت.

. شكرا لك لقد أرحت قلبي.

بفرحة غامرة أفاضت على قلب سارة وجهت الحديث لوالدتها ومعلمتها:

. أنا بخير لقد كذبوا علينا.

قالت معلمتها زينب:

.كنت واثقة من ذلك.

غادروا عيادة الطبيب تحيطهم هالة من السعادة الغامرة، خاصة سارة التي شعرت بارتياح يملأ صدرها يمسح موجات الشقاء التي ضربت به فلم يكن العلاج في تلك الورقة التي خطها الطبيب بقلمه وطوتها بين أناملها، بل كان في الأمل الذي استطاع أن يمحو به صور الماضي السيئة ويبدلها بصور مضيئة تلوح بأفق حياتها أملا في غد مشرق مزين بزرقة السماء الصافية التي طالعتها وهي تستقل العربة التي تقلها عائدة إلى البيت.

الجريدة

يعلو صوت المنادى عبر "الميكرفون" معلنًا قيام القطار المتجه من القاهرة إلى الإسكندرية في تمام السادسة مساءً. تصطف جموع الناس على اختلاف مستوى معيشتهم، ومظهرهم؛ تأهبًا للحاق به.

على رصيف المحطة يجلس حاتم، رجلٌ في العقد الخامس في هيئته الموقرة طويل القامة، رفيع البنية قد زحفت الشعيرات البيضاء لتكسو معظم شعره الذي انزاح إلى الوراء، يرتدي نظارة طبية ذات إطار أسود اللون، وبذلة رمادية. يرسم عقدة الجدية والصرامة بين حاجبيه وهو يطالع جريدته التي أغلقها لحظة سماع صوت المنادي ليضعها في حقيبته، وينهض واقفًا يتابع قدوم القطار أمام الرصيف.

ركب القطار، متوجهًا للجلوس على مقعده في العربات المكيفة، ثم أرجع رأسه إلى الوراء وأسدل جفنيه، يعبئ أنفاسه بالهواء البارد، تدور العجلات على القضبان مُحدِثةً صوت صليل من جراء تلامسها، وإذا بصوتٍ ناعمٍ كهدأة الليل العليل يخترق ذلك الصليل العالي، قائلًا:

. لو سمحت يا أستاذ.

لم ينتبه حاتم في بداية الأمر، فأعادت عليه الحديث قائلةً:

. لو سمحت يا أستاذ؟

فتح عينيه وكأن الزمن توقف عند تلك اللحظة، وتحدقت مقلتاه فى محجريهما، وتهللت أسارير وجهه، وانفرجت عقدة حاجبيه بمجرد رؤيته لهذا القد الممشوق، لذاك الوجه الصبوح الذي ارتسمت الرقة في كل خلجة به، فبدا أسيرًا لثغره الصغير، وعيناه الواسعتان برموشهما الكحيلة، حتى أنهى هذا الشرود الذي اعترضه صوتها يعاود التكرار قائلًا:

. بعد إذنك احمل الحقيبة لأجلس على المقعد؟

فقال لها متنبهًا:

. أعتذر لك وحملها ووضعها فوق قدميه.

جلست الفتاة، ثم أخرجت سماعات أذن هاتفها من حقيبة يدها، وسرعان ما وضعتها بأذنها تستمع لأغنية "لأم كلثوم" وأخرجت نوتة موسيقية تنظر إليها وتحرك أصابعها بطريقة مبهمة، ظلت عيناه حائرتان تختلس النظر إليها! وأخيرًا وجد ضالته للحديث معها قائلا:

. آنسة لو سمحت؟

لم تجبه وظلت منهمكة فى تحريك أصابع يمناها، فشعر بشيء من الخجل، وأعاد النداء بصوت هامس يتعجل الحديث وشفتاه تتعثر فيهما الكلمات ناقرا بإصبعه على النوتة التي بيدها، فنزعت السماعات من أذنيها قائلة:

. نعم؟

. يساورني الفضول لمعرفة كيفية قراءة النوتة الموسيقية؟

فتبسم ثغرها كاشفا عن أسنانها قائلة:

. هذا بحر واسع يحتاج لدراسة السلم الموسيقي، والمقامات، والأزمنة، وتدريبات مستمرة إلى أن تتمكن من القراءة.

شرد ذهنه مستمعا لصوتها العذب، فصمتت عن حديثها .. لتعيد عليه النداء:

. أستاذ... أستاذ هل تسمعني؟

. نعم أسمعك، أحاول أن أعي ما تقولينه، وعذرا لعدم اِستيعابي، فعملي مهندس في التصميمات الهندسية بشركة مقاولات بعيد عن الموسيقى لكن هذا لم يمنع عشقي لسماع الأغاني الطربية.

. أنا أيضا كذلك فعذوبة أصواتهم تأسرك إلى الماضى بجماله وسحره.

. السحر أمامي الآن أراه فى وجهك فأنت إنسانة رقيقة تأسر القلوب برؤياها.

استقرت الشمس على وجنتيها، وجالت منها التفاتة لتخفي جمرتها الملتهبة فأدرك ذلك وراق له رؤيتها و استطرد فى الحديث:

. لقد تحدثنا كثيرا ولم أعلم اسمك؟

. هند.

. سعدت بك وأنا حاتم.

. بأي بلد تقيمين؟

– في الإسكندرية مع والديّ، و أختي الكبرى، فبعد تخرجي في كلية العلوم قررت الالتحاق بأكاديمية الفنون لدراسة آلة (العود) لعشقي لها منذ طفولتي.

. ما أعذب المقطوعات الموسيقية التى يشدو بها! يا لك من فتاة طموح تذكرينني بأيام شبابي، فكم تمنيت أن أصبح كاتبًا وشاعرًا لعشقي للأدب، لكن بعد الزواج تهاوى كل شيء أمام زوجتي وأولادي ومتطلبات البيت المادية، فصرت أسيرا للسفر والترحال لتوفير نفقاتهم التي لا تنتهي.

يقطع الحديث الدائر صوت (الكمساري) طلبا للتذاكر، تدور عجلات القطار محدثة صليلا من جراء ملامسة القضبان يرتفع صوت أم كلثوم عبر سماعة الهاتف شادية بأروع الكلمات:

"هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا"

شعرت هند بحلاوة الحديث بينهما، اختلفت الأجيال و تلاقت الأرواح في لحظة ذابت معها كل الحدود، وهامت المشاعر في عالم ساحر، وبدا صوت صليل عجلات القطار كصوت موسيقى تعزف بين روحين التقتا على حافة النهر.

أخرج حاتم ورقة مطوية من حقيبته، وأعطاها لها قائلا:

. اقرئيها فهذه بعض من أشعاري.

أخذتها لتقرأها وانغمست ذائبة بين الكلمات، منتشية من روعة الإحساس، وعذوبة الأشعار.

لا تسألني عن الندى فلن يكون أرق من صوتك، ولا تسألني عن وطني فقد أقمته بين يديك، و لا تسألني عن اسمي فقد نسيته عندما أحببتك.

داعبت تلك الكلمات شغاف قلبها المرهف فسقطت منها عبرة أخذت مسلكها على وجنتيها فرآها و تعجب! قائلا:

. أتبكين أشعاري؟

. نعم فأنت شاعر، عاشق مرهف الإحساس.

. لكنى وحيد!

. لست وحيدا فسلوتك أشعارك.

ظل الاثنان يبحران في شتى دروب الحياة كأن كلا منهما وجد ضالته ليفيض بما يجيش بداخله للآخر.

دوى صوت صفير القطار تأهبا للدخول إلى المحطة، فانتفضت أرواحهم الهائمة وهبطت في أجسادهم، تملكهم الحزن لانقضاء الوقت سريعا على غير حسبان، غاصت نظراتهم فى سكون تام.. انتهى بتوافد المسافرين عبر باب القطار للمغادرة، فقامت هند من مجلسها لإحضار حقيبتها.

فقال لها بصوت يتهدج بالأسى وعيون تحمل ألم الفراق:

. أين تذهبين؟

فتنهدت طويلا .. حاملة حزن نهاية تلك اللحظات السعيدة قائلة:

. آن الوقت للرحيل.

تعلقت عيناه بها، ومد يده لمصافحتها قائلًا:

. سعدت بوجودك.

ظلت يده ممدودة لبعض الوقت فشعرت بإحراج، وصافحته على اِستحياء قائلة:

. أنا أكثر سعادة منك.

ثم حملت حقيبتها وغادرت، وعيناه تتبعها حتى توارت عن ناظريه بين الأجساد المتدافعة للمغادرة على الرصيف.

علا صوت المنادى عبر "الميكروفون" يعلن دخول القطار إلى المحطة، اهتزت العربات، انتفض حاتم في مقعده تتسارع دقات قلبه، ترتفع أهداب عيونه الناعسة، ليجد يداه ممتدة على حقيبته الراقدة فوق قدميه، فجال منه التفاتة إلى المقعد المجاور فكان شاغرا سوى من جريدة ملقاة كُتب على هامش صفحاتها:

"لقد أعطيتني الكثير، في وقت قصير، فكنت خير رفيق" فابتسم وتعالت أسارير وجهه، واِنفكت عقدة حاجبيه...

لقد كان خط يده!

الأصـفاد

كان الهدوء يعم أرجاء البهو عندما علت أصوات طَرْق المساجين على مُصفح العنبر لإخبار الضابط بسرعة إحضار عربة الإسعاف، لنقل سامي إلى المستشفى.

كانت القلوب تتمزق، العبرات تتساقط، الألسنة تتفوه بالدعاء، فقد تحول (بيكاسو) العنبر كما أطلق عليه المساجين لجلوسه الدائم في حضرة أوراقه، وأقلامه مبدعا أروع الرسومات لكل وجه تراه عيناه، إلى شخص غريب الأطوار، بعدما تبددت أحلامه بقرب تحرره من محبسه والعودة إلى منزله، حيث الدفء العائلي الذي ينساب بين أركانه.

ففي غرفته عندما تلوح العذراء في أفق السماء تنثر شعرها الذهبي على الكون، تتمايل الأغصان، تتفتح الأزهار تلتمس نفحات الصباح لتنشر أريجها الفواح فيعبئ الأنفاس ويسكر الألباب، يتسلل الضوء عبر النافذة، يريد من يُفسح له الطريق، تدخل دعاء بوجه وضَّاء، ثغرٌ باسم، شعر قصير عاد للنمو بعد التعافي من المرض الذي هاجم جسدها الصغير، لتفتح النافذة أمام عذراء الصباح ناثرة بعض خصلاتها في أرجاء الغرفة، كاشفة عن حامل رسم وضعت عليه لوحة، حاولت نزع الغطاء لرؤيتها فلم تقدر فاكتفت بإيقاظ أخيها قائلةً:

. صباح الخير يا سامي استيقظ لقد جهزت والدتي الإفطار.

تعالت أهداب الجفون الناعسة بثقل شديد قائلًا:

. صباح الخير، لِمَ تستيقظين باكرًا؟

. للذهاب إلى المستشفى لعمل بعض الفحوصات.

انتفض من مخدعه إلى الحمام كاشفًا عن جسد مكتنز العضلات ولحية شقراء مضى عدة أيام على عدم حلاقتها، لتجتمع الأسرة حول المائدة لتناول الطعام، قالت دعاء بشقاوتها المعهودة وفضولها الدائم لمعرفة كل ما يُخبأ عنها:

. أريد مشاهدة اللوحة؟

يرد سامي بلا اكتراث:

. أكملي إفطارك.

. هيا قم وأرني إياها.

. لم أنتهِ منها بعد.

. أرني ما أنجزته.

. لا.

قالت الأم ناهرة لهما:

. أكملا حديثكما بعد تناول الطعام.

صمتت دعاء زافرة تنهيدة حنق لعدم تنفيذ رغبتها.

عند الوصول أمام باب المستشفى ودع سامي شقيقته بحضن دافئ على وعد بالتواجد معها في المرة المقبلة ذاهبا إلى مقر عمل، ليستقبله صلاح عامل البوفيه قائلًا:

. صباح الخير أمهلني عدة دقائق وأحضر لك قهوتك .

. أنا منتظرك.

دلف إلى غرفته جالسا أمام مكتبه، واضعا إحدى أصابعه على الجرس الراقد أمامه، جاءته نهى بشعر مموج مطلق على كتفيها، وبشرة سمراء، و عينان واسعتين يلمع فيهما الجرأة والتحدي ليبادرها قائلًا:

. لماذا تأخرت عن الحضور؟

ابتسمت وأعطت له عدة مستندات قائلة:

. تفضل البرامج الجديدة المطلوب تصميمها .

. اشتقت لك!

وضعت الملفات على المكتب وهمت بالانصراف، فأمسك يدها قائلًا :

. متى أسمع منك كلمة تطفئ لظى قلبي المتقد بهواك؟

رمقته غير عابئة قائلة:

. أمامك وقت طويل.

وانصرفت مغلقة الباب وراءها.

أنهى سامي عمله واستقل سيارته للعودة إلى المنزل ليجد دعاء في انتظاره تستقبله بالأحضان فحملها ضاربا كفها الصغير بيده قائلًا:

. ترى ما صحة فتاتي الصغيرة؟

. التحاليل جيدة لكن يدي تؤلمني .

تتدخل الأم في الحديث قائلة:

. تتدلل عليك فهي بخير.

. تفعل ما تشاء فدعاء أجمل الفتيات هيا بنا للرسم.

أجلسها أمام لوحة فارغة، وأعطاها فرشاة وألوانًا، فقامت بتلوين وجه أخيها وتعالت ضحكاتهم حتى انتهت والدتهما من إعداد طعام الغداء.

استيقظ الجميع بعد منتصف الليل على صوت قرع الباب، فهرول سامي لفتحه ليجد مجموعة من الرجال تلقي القبض عليه وتداهم المنزل للبحث في أرجائه ، حتى عثروا على كتاب للإمام أحمد البنا، فقال أحدهم:

. تفضل معنا إلى القسم؟

. ماذا فعلت؟

. ستعلم عند وصولك.

بكت دعاء من ذعرها لهؤلاء الغرباء الذين اقتحموا منزلهم لأخذ أخيها، تشبثت والدته بيده قائلة:

. لم يفعل شيئا اتركوه ليس لي غيره.

. لم يعبأ بها أحد.

احتضنت دعاء وأجهشت في بكاء مرير وهرولت إلى جارهم أمجد المحامي لإخباره بما حدث والذهاب إليه.

ركب عربة الشرطة يتملكه الذعر من مصير مجهول لتطأ قدماه حجرة الحجز ذات الأرض الإسمنتية، ووجوه سحقتها الآلام من رطوبة الجدران، ظلت نظراته تتفرس الوجوه العابسة، وهيئتهم الرثة، فأحدهم الجروح تملأ وجهه جراء طعنة سكين، وآخر رث الثياب مطلق اللحى والشعر متسول كان يراه ويتصدق عليه، أما اليوم فأصبحا رفقاء مكان واحد.

ظل واقفًا حتى دفعه العسكري للدخول، دوى صرير غلق باب الحجز فشعر أنه وسط غابة بشريه تهم بالانقضاض عليه اقترب منه أحدهم قائلا :

. ما اسمك؟

قال له باقتضاب:

. ليس شأنك.

. رغمًا عنك سترد أنا محمود كبير هذا الحجز.

استثاره حديثه ولم يشعر بنفسه إلا مسددا له الضربات والركلات في جميع أنحاء جسده حتى باعد بينهما أكرم وأجلسه بجواره مهدئا له، ليبادره سامي متسائلًا:

. أنا لا أفهم لماذا نحن هنا؟

. من أجل هدفنا السامي في إنشاء دولة إسلامية.

. لا تجمعني معكم فما شأني بدولتكم المزعومة، أريد الخروج من هنا.

ووقف ممسكًا بالقضبان صارخًا:

. أخرجوني من هنا، أمي وأختي ليس لهما غيري.

والتفت إلى أكرم ووجه له لطمة قائلا:

. ليتني لم أقابلك مجددًا لقد أهلكتني.

في الصباح تم استدعاء سامي للتحقيق، وكان الأستاذ أمجد بانتظاره للحضور معه.

فتح المحضر وبادره الضابط قائلًا:

. ما أقوالك في أنك ضمن تنظيم ضد نظام الحكم.

علا صوته، وامتعض وجهه واحمرت وجنتاه من شدة الضيق الذي احتواه عند سماعه الاتهامات الموجهة له:

. أنا مهندس كمبيوتر لا أهتم إلا بتصميم البرامج ولست مهتمًا بالسياسة حتى أنتمى لتنظيم.

. ما علاقتك بأكرم وسعد لقد أقرا أنك مقرب لهما .

. أكرم صديقي منذ الطفولة وافترقنا بعد إتمام الدراسة الثانوية وتقابلنا منذ فترة.

في أثناء سير سامي متوجها إلى منزله التقى بصديقه أكرم فتصافح الاثنان بحفاوة بالغة، وجلسا في المقهى يرتشفان الشاي ويستعيدا ذكرياتهما لحديث دام لوقت طويل بدأه سامي:

. لا تتوقع قدر سعادتي برؤيتك اليوم لكن مظهرك تغير فقد زاد وزنك بعض الشيء ونمت لحيتك وكم كنت تكره إطلاقها.

. معك حق لكن كنا شبابًا غير ملتزم.

. أين تعمل الآن.

. بعد انتهائي من دراسة كلية الصيدلة جاء تكليفي في إحدى الوحدات الصحية بقرية نائية على أطراف محافظة الجيزة وأعمل بإحدى الصيدليات بمرتب جيد؟

. أما أنا تخرجت من كلية الحاسبات والمعلومات وأعمل في شركة برمجيات، أهتم بوالدتي، وأختي الصغيرة بعد وفاة والدي.

. رحمه الله كان رجلا خلوقا، ودعاء كيف تبدو فآخر عهدي بها طفلة أحب اللعب معها.

.كبرت وأصبحت مشاكسة لي دائما.

أخرج سامي الهاتف من جيبه وأراه صورتها.

. ما أروعها فلم أكد أعرفها.

ظلا الصديقان يتبادلان أطراف الحديث حتى داهمهما الوقت فافترقا بعد تبادل أرقام الهواتف على وعد بلقاء قريب.

عند عودته إلي المنزل أخبر والدته برؤيته له فسعدت وطلبت دعوته لتناول الغداء معهم في نهاية الأسبوع.

دق جرس الباب، توجه سامي لفتحه واستقبل أكرم قائلا:

. أهلا بك تفضل.

أدخله مناديًا والدته قائلا:

. لقد جاء أكرم.

. دقائق وأحضر.

حضرت الأم متهللة الأسارير عند رؤيتها لضيفها العزيز تستقبله بترحاب بالغ قائلة:

. لك شوق يا بني كم سعدت كثيرًا عندما أخبرني سامى بلقائك، لكن أعتب عليك نسيانك لنا طيلة تلك الأعوام.

. معك حق لكن مشاغل الحياه ما ألهتني عنكم وأعدك لن نتفرق أبدا.

. أتمنى ذلك فمحبتك مثل أبنى.

دخلت دعاء لرؤية الضيف القادم بخطوات دءوبة فشجعتها والدتها قائلة:

. صافحي عمك أكرم فكم أحضر لك الشيكولاتة وأنتِ صغيرة.

ففعلت على خجل منها.

. ألا تذكريني لقد كنا أصدقاء نلعب سويا بالكره؟

جالت نظراتها حائرة لرؤية الضيف الذي لا تتذكره وصافحته على استحياء جالسة بجوار أخيها.

قالت الأم موجهة حديثها لأكرم وهي تضع الأطباق على المائدة.

. هيا لتناول الطعام وبعد ذلك نتحدث للمساء.

في غرفة المعيشة جلسوا للتسامر بعد الغداء، قالت الأم:

. أسعدتنا بوجودك معنا ونتمنى تكرار تلك الزيارة مرة أخرى.

. اطمئني ستسأمون حضوري لكم، ثم أردف موجهًا حديثه لدعاء:

. هل تُصلين يا دعاء؟

. أحيانا.

. أنا أتمنى أن تصلي دائما، ولمَ لا ترتدين الحجاب؟

تحدثت والدة دعاء بدلًا من ابنتها:

. لم تزل طفلة لم تبلُغ بعد.

. حتى تعتاد عليه لترتديه عند بلوغها.

. أتركها تتمتع بطفولتها البريئة.

أذن المؤذن لصلاة المغرب فاستأذن في دخول الحمام للتوضؤ، ثم طلب من سامي النزول معه لأداء الصلاة في المسجد.

أثناء سيرهما في الطريق المؤدي للمسجد قال سامي:

لقد تغيرت كم كنا ننهرك لعدم صلاتك يوم الجمعة.

.كنت في غفلة والحمد لله انتبهت منها.

. للأفضل دائما.

منذ ذلك اليوم أصبح أكرم فردًا من الأسرة يصطحب دعاء إلى المستشفى لمتابعة صحتها، ويرتادا المساجد سويا.

في أحد الأيام بعد الانتهاء من صلاة العشاء بالمسجد، جاء اثنان من الرجال صافحا أكرم الذي قدمهما لسامي قائلًا:

. أحمد وسعد أخوة لنا في الله يديران متجرًا لبيع الملابس، سامي صديقي منذ الطفولة مهندس برمجيات.

قال أحمد بحفاوة وترحاب:

. لقد حدثني كثيرًا عنك وشرفت بلقائك.

. أنا أكثر منك

وصافحهما وهمَّ بالانصراف من المسجد فأصر سعد لاصطحاب الجميع لضيافتهم بمنزله.

أثناء تناول أقداح الشاي ومشاهدة أحد البرامج بالتلفاز ومتابعة تصريح أحد الوزراء أمام المذيعة الحسناء، منتفخ الأوداج واعدا بتحسن الوضع الاقتصادي في القريب العاجل، وزيادة المرتبات، وخفض الأسعار.

أظهر أحمد سأمه من حديثه قائلًا:

. أترون أحد المنافقين الذين يطلون علينا بأكاذيبهم كل يوم.

قال سعد متأففًا:

. لمتى سنظل نسمع تلك المهاترات ونقف صامتين.

قاطعهم سامي قائلا:

. وماذا بأيدينا أن نفعل؟

بصوت جهور كأنه يخطب أمام حشد غفير من الحاضرين قال أكرم:

. دولة تطبق أركان الشريعة في جميع مؤسساتها.

تساءل سامي:

. كيف؟

التقط سعد أطراف الحديث:

. حل الأحزاب السياسية وقيام هيئة شرعية تقود الأمة، منهجها القرآن وسنة رسولنا الكريم.

. أختلف معك وأرى ضرورة الفصل بين الدين والسياسة.

قاطعهما أكرم قائلا:

. كلاهما كيان واحد فإن تقاعُسَ المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله جريمة.

تحدث سامى ساخرا لحديثهم:

. تُرى كيف تفعلون ذلك .

رد أحمد قائلا:

. نظرية السيف في الإسلام.

. لكننا لم نعد في عصر السيف بل النت والهواتف النقالة.

. القوة هي الدواء المر، والسيف في يد المسلم كالمشرط في يد الجراح لعلاج داء مجتمعنا.

بثبات وعيناه لم تغفُ بعيدًا عن سامي لمتابعة ردود أفعاله استطرد أحمد:

. الحقيقة أننا نريدك معنا في الجماعة لتساعدنا بالقضاء على المفسدين.

. أنا وكيف يتسنى لي هذا وأنا أختلف معكم في أفكاركم.

أحضر سعد أحد الكتب وأعطاها لسامى قائلا:

– خذ هذا الكتاب واقرأه جيدا وبعدها ستغير رأيك.

. سأقرأه لكن لأثبت لكم عدم صحة حديثكم.

طالع سامي عنوان الكتاب "رسائل الإمام الشهيد حسن البنا"، وقد أدرك سبب التغير الذي بدا على صاحبه.

انتهى سامي من سرد أقواله وأمسك القلم للتوقيع عليها موجهًا حديثه لأمجد:

. أنا لم أفعل شيئًا، لقد رويت كل ما أعرف.

. اعلم يا بني اطمئن لن أتركك، وستخرج قريبا فالتحريات ستثبت براءتك.

. سأُثقل عليك، اعتن بأمي وأختي لحين عودتي وأخبرهما بأنى بريء.

. لا تقلق بشأنهما اهتم بنفسك.

في الخامسة صباحا فتح باب الحجز وتم اقتيادهم في طابور كالخراف المنساقة للمذبح، الأصفاد تلف معاصمهم إلى عربة الترحيلات التي تقلهم إلى مقر النيابة. طالع الطريق من بين القضبان كعصفور حبيس سُلبت منه حريته التي يحيا بها.

وصلت العربة ليهبطوا منها تباعًا للمثول أمام النيابة لمناقشته في الأقوال المثبتة في المحضر، ليخترق صوت وكيل النيابة كالرعد في أُذنيه معلنًا حبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق، كاد يُغشى عليه من هول الفاجعة التي ألمَّت به، فقد أصبح مجرمًا حبيس القضبان تعصف بذهنه تساؤلات عديدة، فمن يرسم الضحكة على ثغر والدته وشقيقته، ويؤنس وحشتهما؟ وحبيبته التي يتمناها حتما ستتركه، علا صوته حبيسًا في صدره يرتد صداه بين جوانحه ليفتك به.

في حجرة الحجز يسير محتكًا بأجساد المحتجزين للعثور على مكان للجلوس، فاتحًا طرف ثغره بابتسامة بلهاء.

أمضى الأيام الأربع رافضًا الحديث إلى أكرم متمنيًا البكاء، لكنه تمالك نفسه حتى لا يفترسه المحيطون متمسكا بالأمل في أن ينال حريته المسلوبة ويتم إعادة تجديد حبسه لاستكمال التحقيق وترحيله إلى الحبس الاحتياطي بالسجن.

أثناء ترحيله كانت أمه تنتظره يجاورها أمجد وقلبها يتمزق من رؤيته في حالة رثة مكبَّل بالأغلال، علا صوتها بالنداء:

. ترفق بنفسك يا بني، محنة وسوف تنتهي.

. لا تقلقي أنا بخير اهتموا بأنفسكم.

نكزه العسكري في كتفه للدخول وأمه واقفة لا تملك سوى زرف العبرات وقلب يتمزق بين جوانحها.

ارتدي الملابس البيضاء، ودخل العنبر مقبرته الدائمة ذات شباك وحيد لا تدخله شمس ولا هواء، فقط الروائح الكريهة المنبعثة من الحمام البلدي القابع في المكان، جالسًا على الأرض يضم ساقه إلى صدره دافنًا رأسه بين راحتيه كأنه في كابوس يود الاستيقاظ منه.

مرت الأيام برتابة لا جديد فيها، لا يبتسم إلا عندما يرسم بقلمه صورًا كاريكاتيرية للسجناء ثم يعطيها لهم فيضحكوا ويطلبوا منه رسم المزيد فأطلقوا عليه بيكاسو العنبر.

في قاعة المحكمة المأهولة، المساجين في القفص وذويهم في الخارج انتظارًا لسماع الحكم في القضايا المنظورة، وقف في القفص يشبك أصابع يديه الاثنين المدفوعتين نحو صدره يوزع نظراته بين سقف المحكمة والحاضرين باحثًا عن أمه فوجدها جالسة في أحد الصفوف، فاقده الوزن ترتدي سواد فراقه، تجاورها دعاء طفلته الصغيرة.

كم يشتاق لفرحة لقائها وتعلقها برقبته ووضع رأسها على كتفه عند استقباله، وبعثرتها فرشاة رسمه وألوانه والذهاب معها إلى الحديقة لتركب الأرجوحة تشق الهواء بجسدها، فيطير فستانها ويبعثر شعرها الذهبي، تخشى الوقوع فتطلب منه التريث قليلًا ثم يباغتها ويعاود دفعها، تعلو ضحكاتهما تملأ الأجواء.

وحبيبته جالسة تربت على كتف أمه وتنظر له بأسى، فلم يدر أن لقائهما سيكون الأخير.

في المساء حضر إلى المطعم وجلس على أحد المناضد يتابع المراكب تشق صفحة الماء لتخترق هدوئه محدثة موجات متتابعة لا تلبث أن تهدأ من جديد، جاءت نهى تتبختر في فستانها الوردي القصير بحزام لُفَّ حول خصرها فأبرز جمال قدِّها فلمعت عيناه من شدة جمالها.

وانتفض واقفًا يستقبلها قائلًا:

. تأخرتِ؟

. الطريق كان مزدحمًا.

. أزاح لها الكرسي للجلوس مقدمًا لها اللوحة قائلًا:

. كل عام وأنتِ بخير.

نزعت الغلاف المحيط فإذ بصورتها، فتهللت أساريرها وضحكت من شدة فرحها.

. أعجبتكِ؟

. قليلًا.

. طبعًا لأنك في الحقيقة أجمل وأرق من الصورة.

صدر منها التفاتة إلى النيل لتخفي خجلها في ضوء القمر المراق على صفحة الماء ليداعبها النسيم مصافحًا خدَّيْها وشعرها، فزادها حسنًا وبهاءً.

. أهواكِ يا مهجة فؤادي.

. أنت لست أكثر من زميل.

. انظري إلى عيني!

فلم تقدر أن تنظرَ إليه فتكشف عيناها سرهما، وشعرت بجمرة من النار تستقر فوق وجنتيها، وذابا في سحر لغة الحب المجنحة تحيطهما وتجمل الدنيا وتحيلها كالحلم اللذيذ، كالنغمة العذبة، كالصوت الجميل، هامت روحهما في الفضاء الفسيح حتى انقضى الوقت سريعًا فاستأذنت قائلةً:

. تأخرت لابد من العودة.

حملت حقيبتها على كتفها وأمسكت بلوحتها قائلة:

. شكرًا لك هذه أجمل ما أهديت.

. إذًا مهرك لوحات رسم.

ابتسمت قائلة:

. سأتأخر.

. انتظري سأقلك إلى البيت.

وحمل اللوحة عنها وأوقف لها سيارة أجرة أقلتها لمنزلها، ترجل في الطريق المؤدي إلى البيت، ارتحل في دروب العشق يداعب عقله عبق اللقاء القصير الذي جمعهما.

علا صوت الحاجب مناديًا على رقم قضية المقرر الحكم فيها وظلت النيابة توجه الاتهامات وأمجد يدافع عنه بالأدلة والشهود، حتى جاءت اللحظة الحاسمة لإعلان النطق بالحكم.

دقات قلبه تتسارع، أنفاسه لاهثة، أوصاله لا تقدر على حمله، عيناه معلقة على القاضي تتوسل إليه أن يفصح عما بأوراقه، ليريح قلبه الملهوف لأهله وأحبابه، أن يحكم بالقلب، العدل، الإنسانية، لا بالأوراق التي بين يديه، أن يرحم دموع أمه المكلومة في وليدها الوحيد، أن يأنس وحشتهم ويلملم شملهم.

أفاق من شروده على صوت القاضي معلنًا تأجيل القضية، فقد حكم بقانون الأوراق!

اقترب أيمن من القفص قائلًا:

. اطمئن في الجلسة القادمة سيتم الحكم.

نظر له باستهزاء لما سمعه قائلا:

. لا أعلم هل سأغادر أم لا؟

تحادثه والدته بلهفه:

. ستغادر ونجتمع سويًا من جديد فاعتني بنفسك من أجلي.

. عندما أراكم فأنا بخير، لا تقلقي وتناولي دواءك.

أثناء حديثهما جاهدت دعاء لقصر قامتها بعنق مشرئبة، تنادي عليه بصوت واهن تلاشى وسط تدافع الأهالي على القفص لتوديع ذويهم، فجثا على ركبتيه لمحادثتها:

. أفتقدك يا أميرتي الصغيرة.

. وأنا أكثر منك، أمي دائمة البكاء لرحيلك متى ستعود.

. قريبا فلا تجعليها تبكي.

. أومأت برأسها بالموافقة قائلة:

. حاضر

رنت منه نظرة لنهى قائلًا:

. لا أعلم كيف أوفيكِ حقكِ لوجودك بجوارنا.

. لا تقل هذا أنتم أهلي وجميعنا في انتظار عودتك.

ودعهم بنظرات باكية وقلب يدميه الأنين لفراق لا يدري نهايته.

***

انقضى عامان على حبسه احتياطيًا، وعدم الحكم في قضيته وامتناع والدته وشقيقته عن زيارته في الآونة الأخيرة، مما أثار الريبة لتساؤلات عدة تلاشت بحضور أيمن لزيارته.

بسحنات وجه مضطربة، زائغ العينين، وشفاه مرتعشة تقف الكلمات على أعتابها حبيسة، لا تريد المغادرة لا يدري كيف يخبره بذلك الخبر المفجع، فبعد تسلل الهواء ببطء عبر فمه في زفير طويل قال له:

. البقاء لله.

دبت الغصة في قلبه واستدارت به الأرض مترنحًا.

. أماتت أمي.

. لا بل دعاء، فقد تغلغل المرض بجسدها وأسلمت الروح لبارئها.

لم يجد في مقلتيه عبرة يذرفها ولا آه يأن بها، لم يشعر إلا بالدوامة في رأسه تمتص قوته وتحيله إلى جسد ذابل، فقد سلبت روحه.

في حجرة المستشفى رقدت دعاء على سريرها تجاورها والدتها، تنزع بيدها قناع الأكسجين الجاثم فوق أنفها لإراحة صدرها من ضيق التنفس الذي يكاد يزهق روحها من شدته، بعد تغلغل المرض بشعابه، بصوت واهن قالت:

. أين سامي أريد رؤيته

. سيأتي قريبًا.

زفرت تنهيدة .. ربتت على كتفيها، وقد أشاحت وجهها لتخفي دموعها التي تكاد تطل من عتبات عينيها، واعدة لها بأمل كاذب طال انتظاره، تدهور وضعها الصحي سريعًا حتى لفظت أوردتها الأدوية المارة من خلالها وأسلمت الروح لبارئها منتظرة رؤية أخيها.

اتسعت أحداقه لم تنبس شفتاه بكلمة، تتدفق الذكريات على رأسه صبا، صورتها تتراءى أمامه وصوتها يرن بإذنه، إنه افتقد روحه الغالية، ولم يكن بجوارها يخفف عنها ويودعها لمثواها الأخير.

قال له مشفقًا:

. ترفق بنفسك يا سامي.

نظر له غير عابئ وغادر إلى محبسه، عند عودته لاحظ زملاؤه وجومه فالتفوا حوله للاطمئنان عليه لكنه انزوى في أحد الأركان صامتا لم ينبس بكلمة، عيناه تحدق في الفراغ.

في العنبر جلس والجميع نيام، ممسكا بقلمه وأوراقه، منهمكًا بالرسم، عندما بدأت سيمفونية العزف بالأنفاس المتلاحقة المتحشرجة يتردد صداها عابرة البهو الخارجي، سمع صوتا مناديا باسمه، رفع رأسه وبحث متعجبًا فلم يجد أحدًا فعاد للرسم لكن تكرر الصوت بالنداء، فقام من مجلسه وتفحص جميع المساجين فوجدهم فى سبات عميق، تكرر النداء كأنه بجواره فارتعد خوفًا مستسلمًا للنوم.

في فناء التريض خرج الجميع إلى ساحة السجن الفسيحة، الوقت الوحيد الذي ترى أعينهم السماء، وتشم أنوفهم رائحة الهواء، تتمتع أعينهم بضوء الشمس الوهاج بدلا من ضوء المصباح الخافت، ظل ناظرًا إلى السماء ليقطع شروده صوتًا مناديًا باسمه فتتبعه ليجده رجلًا ضخم البنية هم بالاقتراب منه قائلًا:

. من أنت؟

فابتسم له واستدار واختفى بين الزحام، ظل يبحث عنه في أرجاء الساحة فلم يجده!

رآه أكرم، فقال له:

. عن ماذا تبحث؟

. رجل ضخم كان واقفا هنا منذ عدة دقائق.

. لا يوجد أحد هيا فوقت الفسحة أوشك على الانتهاء.

جلس سامي كعادته وحيدًا للرسم فتكرر بسمعه صوتٌ يعنفه:

. أنت شخص فاشل.

. لست كذلك ابتعد عني، اتركني بمفردي.

وضع يده على إذنه ليصمَّها عن سماع الصوت الذي بات ملاحقًا له في يقظته وسباته.

بدأت حفلة سمر بين المساجين، فأحدهم أحضرت له زيارة من السجائر أخذ يفرقها على أقرانه، وآخر جمع حوله زملاءه راويًا لهم مغامراته الجنسية قبل دخوله السجن برغم دمامة وجهه، وآخرون اجتمعوا حول الشيخ وائل كما أُطلق عليه بعد دخوله السجن لالتزامه بالصلاة، قراءة القرآن والاستغفار وتعهده بعدم العودة للسرقة بعد الإفراج.

كان جالسًا بينهم يسمعهم ولا يشاركهم الحديث، حتى أتى إليه رجلٌ ضخم البنية تتدلى وجنتيه من كثرة الدهون التي تكسوها قائلًا:

. ألم أقل لك مزِّق لوحاتك أنت فاشل.

فنهض واقفًا أمامه قائلًا:

. لست فاشلًا فقد كنت دائم التفوق في دراستي، وحققت مكانة مرموقة في عملي، ورسامًا موهوبًا.

. أنت فاشل مسجون خفقت بإثبات براءتك، والارتباط بحبيبتك، ومرضت أمك منذ سجنك، وماتت أختك ولم تكن بجوارها.

وأخذ من يده أوراقه ومزقها، تتعالى ضحكاته في الأجواء فتملك سامي الغضب لفعله قائلًا:

. أتسخر مني اخرج من هنا، لا أريد رؤيتك.

فلم يذهب وأمسكه دافعا رأسه إلى الحائط بشدة حتى سالت منه الدماء.

اجتمع المساجين حوله لتقييده وتهدئته فقال أحدهم يحدثه:

. لما فعلت هذا بنفسك؟

. كاد يقتلني.

الجميع في صوت واحد:

. من هو؟

. لا أعلم اسمه إنه أمامكم ساخرًا مني بضحكته العالية، مزَّق لوحاتي، رطم رأسي بالحائط فكدت أموت.

جالت نظرات المحيطين فيما بينهم عجبًا لحديثه فهو من فعل بنفسه ذلك.

وأذابه يسمع الصوت مرددا:

. يا فاشل.

فصرخ ناهرًا له:

. اصمت، ابتعد عني، ارحمني.

وسقط جاثيا على ركبتيه، اقترب منه أكرم وضمه إلى صدره يتلو على رأسه آيات من القرآن حتى غاب في سبات عميق.

اعتاد المساجين سماع حديثه، مع أشخاص ليس لهم وجود، البعض قال فقد عقله، أو مسه الجن، شيخ مبروك يرى ما لا نراه.

علا صوت السجان مناديا باسمه في قائمة الزائرين، من خلف الحائل الزجاجي جاء صوت والدته حزينا عبر السماعة المسموح الحديث فيها قائلة:

. ما بك لقد هزلت، ترفَّق بنفسك من أجلي ليس لي سواك.

تجوب عيناه أرجاء المكان ممسكا بالسماعة لا يعير الانتباه لحديثها أو وجودها.

. عن ماذا تبحث؟

لم يجب سؤالها وبادرها قائلا:

. لا تحضري لزيارتي مرة أخري.

بتعجب لما يقول قالت:

. ما بك لقد كنت تنتظر ميعاد الزيارة و تحصي الأيام لرؤيتي؟

بهدوء وصوت منخفض لا يريد أن يسمعه أحد قال:

. عندما يبتعد عني سأكون بخير.

. من هو ؟

يتلعثم في الحديث متحدثًا بصوت منخفض قائلا:

. لا أعرف اسمه، يرافقني في كل مكان أذهب إليه ينعتني بألفاظ نابية، يضربني، يسخر مني.

وفجأة سمع صوته ورآه قادمًا نحوه فاقتضبت ملامحه خوفا، ألقى السماعة، نهض واقفًا قائلا:

. ألا تريه يا أمي؟ إنه قادم ليضربني، ابتعد عني.

حرك ذراعه ضاربًا الهواء مدافعًا عن نفسه، اختلج صدر أمه بحديثه المبهم وأفعاله المريبة وانهمرت دموعها، ليعلو صوت السجَّان معلنًا انتهاء الزيارة.

في موعد الغداء وضع لهم الطعام فأقبلوا لتناوله إلا سامي ظل مدققًا النظر بصحنه، فرآه أكرم وتعجب من فعله قائلًا:

. لما لا تأكل؟

. لا أريد.

. لكنك متعب وتحتاج لغداء.

. قلت لك لا أريد.

وظلَّ ممتنعًا عن تناول الطعام لعدة أيام فترفق به الشيخ وائل وأحضر له غداء من إحدى الزيارات قائلا:

. هذا طعام من البيت تناوله حتى تسترد عافيتك.

. لا فقد وضع به السم ليقتلني.

. رفقًا بنفسك فليس به سم.

وتناول بعضًا منه أمامه لكنه ظل ممتنعًا يصارع الموت والحياة.

سمع صوت الرجل قادمًا نحوه مبتسمًا له من طرف ثغره.

قال له بإعياء شديد:

. أتريد قتلي؟

. لأنك إنسان فاشل لا تستحق الحياة.

ضحك عاليًا، وأخذ يوجه له اللطمات، والركلات، ثم أمسك برأسه لدفعها بالحائط حتى سالت منه الدماء.

أمسكه المساجين وأحكموا قبضتهم عليه لمنعه من رطم رأسه، وتعالت أصوات الطَرْقِ على الباب المصفَّح لإخطار الضابط بسرعة إحضار عربة الإسعاف لنقله إلى المستشفى.

جلس أكرم واضعًا رأسه على صدره مزيلًا لدمائه المخضبة لوجهه جرَّاء جرح غائر في جبهته قائلًا:

. سامحني يا صديقي أنا من فعلت بك هذا.

تزاحمت الأصوات حوله كدق الطبول فوق رأسه، الرجل الضخم بجواره يعنفه، والشيخ وائل يتلو عليه آيات القرآن، والألسنة تتمتم بالدعاء، القلوب تتمزق، العبرات تتساقط، والحناجر تعلو بالنحيب، والأنفاس تتأرجح في الصدور حتى صمت كل شيء، وانساب الدفء في أوصاله "فقد حصل على حريته من هذا العالم".

النسمات الدافئة

كانت الحديقة عامرة بالأطفال تمرح بالكرة، وتركب الألعاب، وياسمين جالسة أسفل المظلة تتابع ابنتيها من بعيد، بعد أن أرغماها على الحضور على غير رغبتها، لتأتى رؤى طفلتها الصغرى ذو الخمسة أعوام تجذب يدها للقيام لمساعدتها في ركوب الأرجوحة، فأخبرتها بالذهاب لأختها فأبت وبدأت في البكاء، قامت معها تتجرع خيبة الأمل لتبدد لحظات الراحة التي أملت بها فمتطلبات البيت والفتيات لا تنتهى إلا بوقت النوم.

لم تدر أن ابنتها تحالفت مع القدر لتأخذ بيدها لرؤيته بعد هذا الغياب، فكادت تهوي وتصلبت قدماها في الأرض عندما التقت عيناها به يجول ببصره باحثًا بين وجوه الأطفال حتى رنت عيناه لطفل في العاشرة من عمره أشار إليه للحضور ناهرًا له:

. أين ذهبت يا سليم؟

. لشراء العصير.

. و لما لا تخبرني لقد ظللت أبحث عنك. لا تتحرك بدون علمي.

. أسف يا أبي.

. اذهب للعب الآن حتى موعد تمرين السباحة.

أبدت دهشتها عند سماعها كلمة أبي وظلت تتأمل ملامحهما حتى دارت رأسها، فبالأمس كان لقائهما الأخير

حينما أتى يصافحها على عجالة من أمره بعد تأخره قائلا:

. أعتذر لك لقد أنهيت عملي متأخرًا.

. لا يهمك يكفي أني أراك أمامي.

أفرغ ثغره عن ابتسامة حانية عند قوله:

. اشتقت إليكِ.

. أنا أكثر فأنا أحصي الدقائق والأيام لرؤياك.

. سامحيني يا معشوقتي لأني جعلتك تنتظرين.

امتدت يداه تمسك يدها الراقدة على المنضدة كزهرة ذابلة تريد من يبث فيها الحياة، فرواها بقبلة منه ذابت معها أوصالها.

. أما زلت غاضبة مني.

. نعم وبشدة.

. فأمسك يديها ولثمهما فارتبكت وانتفض جسدها لتقول:

. لسنا بمفردنا كف عن ذلك.

ونزعت كفيها من بين يديه.

. لما فعلت ذلك، اتركيني أداعبهما قليلًا.

. لا، أريد التحدث معك.

. لا أقدر فالكلام يتلاشى من عقلي في حضرة ملكتي فلا أقوى إلا على النظر إليكِ.

. أنور ماذا فعلت مع أبيك.

. لا أريد التحدث في ذلك نحن معًا وهذا يكفي، اترك ما يحدث للغد فلن نقدر على تغيير أقدارنا.

. أرجوك أخبرني ما قاله لك.

. لقد وعدني بالموافقة وطلبك من أبيك لا تقلقي.

. أتمنى أن يصدق بوعده.

كان غير واثق بوفائه بوعده لرفض أبيه إتمام تلك الزيجة، لكن محبتها التي غزت قلبه تحركه لعدم اليأس،

لاحظت ياسمين شروده فطرقت بأطراف أصابعها على يده قائلة:

. لمَ شردت بعيدًا عني؟

. لا أقدر وأنا معك.

. ابتسمت بحياء العذراء وصمتت عن الحديث.

. لمَ الصمت؟

. لا أدري ما أقول.

. أحبك وشوقي إليكِ ليس له حدود وأريد أن أسمعها منك لتروي ظمأ قلبي الملهوف.

. بحبك يا نور القلب والعينين.

تغلغلت السعادة والسرور بين قلبهما وارتحلا في دروب الهوى يقطفان بعضًا من زهراته المعبأة بداخلهما لتتركه على وعد بتتويج قريب لهذا الحب.

ولم تره حتى تلك اللحظة فقد امتنع عن الإجابة على هاتفه ولم يأت لخطبتها حتى أبلغتها صديقتها سوزان بنبأ وقع على أسماعها كالصاعقة، وأراق حبها له بعدما ترعرع شجرة يافعة امتدت جذورها وازدهرت أوراقها على مدار سنوات عمرهما بالكلية وبعد التخرج، "فقد خطب راندا صديقتهم وزميلته في العمل".

سقطت سماعة الهاتف من يدها لتسري رعشة في جسدها لا تقدر أن توقفها.

اتصلت بصديقتها حنان تبكي لها ألمها فجاءت إليها مسرعة، لتستقبلها بعيون سكبت من الدموع أنهارًا وتهدئها قائلة:

ماذا حدث يجعلك بذلك السوء.

. خطب راندا.

. من؟

. أنور.

. كيف ومتى حدث ذلك فكان دائم الشكوى والنقد لكثير من تصرفاتها؟

. لا أعلم لقد أخبرتني زميلتهما سماح في الشركة بعد إلحاح شديد مني.

. اهدئي لا يهم انسيه كنا نعلم بتعنت أبويه معه في كل شئونه.

زفرت دموعًا كما لم تبك طيلة أيام عمرها وجمعت هداياه وصورهما وخطابات له وأحرقتها، وزجاجة عطر أهداها لها تشعرها بقربه إذا تنسمتها لتحطمها أمام عينيها، كانت شظايا النار تندلع أمامها ويتأجج معها نيران الحرقة لفعلته بين جوانحها.

أربكته رؤيتها غير المتوقعة بوجهها الأسمر الدقيق التقاسيم عند تتبعه لتحريكها لابنتها على الأرجوحة، فقد كان شابًا تحكم به الهوى بوعود كثيرة، لكن الظروف كانت أقوى منه فخذلته.

فبعد حديثه إلى والده وبث أشواقه ولوعته للارتباط بها رحب بالزواج والذهاب معه، وفى الموعد المحدد كعادته الدائمة تعلل بظروف عمل طارئة ألمت به، لم يستطع تمالك نفسه فصرخ به بكل قوته:

. لما تفعل بي ذلك ألست ولدك وتريد لي السعادة.

. أريدها لكن ليس مع ياسمين.

. أنا من أقرر ذلك وليس أنت لقد أعطيتها وعدًا.

. أتريد أن تتزوجها اذهب أوف بعهودك واعلم أني غير راض عن تلك الزيجة.

. لا يجب ما تفعله بي فأنا أحبها.

. لكن الحب لا يكفي.

. فوالدها منفصلان.

. ما العيب في حلال أقره الشرع وتحرمه أنت.

. لا أحرمه لكن أخشى أن تكون مثل أمها.

. لمَ سوء الظن وما ذنبها وقد أحسنا تربيتها.

. لتكون لغيرك وليس لك.

علت الدماء برأسه من حديث والده وتركه وغادر المنزل للذهاب إلى والدها والتقدم لها بمفرده.

في مكتب المحاسبة الخاص بوالدها استقبله بالترحاب قائلا:

. لقد سعدت بلقائك حدثتني ابنتي عنك كثيرًا.

. أنا أسعد وأعتذر عن عدم حضوري بموعد سابق.

. أنت ابن لي تأتي متى تشاء.

. أعلم، وذلك ما شجعني فأنا أحترمك وأقدر عقليتك المتفتحة وحسن تربيتك لابنتك ياسمين.

. تلعثم قليلًا وأكمل حديثه.

أنا لي دخل من عملي في شركة الأدوية يساعدني على تأسيس بيت والإنفاق عليه، وقد جئت اليوم لأطلب منك يد ابنتك.

. هذا يزيدني شرفًا ولا مانع عندي فأنت شاب ذو خلق.

تهلل فرحًا وانزاح العبوس الذي كسا وجه.

. أنتظرك مع أسرتك للحضور في أي وقت.

عاوده الضيق وقال:

. وما شأن أسرتي فأنا من سيتزوج وليس هم.

. ولا بد أن تكون ابنتي مرحب بها بينكم.

. أكيد لكن أنا لست طفلًا أحتاج وجود أحد معي.

. يا أنور أليس من حقي أتشرف برؤية عائلتك التي ستصبح ابنتي فردا بينهم.

. أيعني ذلك أنك ترفض طلبي في حالة عدم حضورهم.

. أكيد؛ لأن أسرتك ترفض ابنتي ولذا لم تحضر معك ولا أقدر أن أشجعك على مخالفتهم.

بنبرات صوت تتهدج بالرجاء:

. اطلب مني أي ضمانات لأفعلها لك وتقبل مطلبي.

. أنا لا أبيع سيارة أو عقارًا إنها ابنتي.

قام من مجلسه مودعًا له وقد كسا وجهه أمارات الحزن لخيبة أمله.

مرت الأيام متشابهة لا تحمل جديدًا، فمحاولة إقناع أبيه ليظفر بمحبوبته لم تكلل بالنجاح، فقد خبى الضوء الذى ينير أيامه وبدأ يفكر في الرحيل خارج البلاد، حينما بدأ يلوح في الأفق ضوء جديدًا ينثر أشعته حوله بلا إرادته. فقد لاحظت راندا زميلته في الشركة في الآونة الأخيرة وجومه الدائم وفقدان مرحه الذى اعتاده الجميع، وكانت تهتم لأمره وبسؤاله أخبرها بتعبه فلم تقتنع وما كان منها إلا انتظاره حتى انتهيا من عملهما متسائلة:

. ألن تكون بخيلًا ونحتسي كوبًا من العصير معًا؟

. أكيد وغداء أيضا.

. يكفيني العصير.

كانت الكلمات تخرج من فمه منذ جلوسهما ثقيلة ثم يعود لصمته، فقررت أن تلمس موضع الألم لعلمها بالخلافات بينهما قائلة:

. ألن نفرح بك مع ياسمين قريبا؟

شهق نفسًا عميقًا وهو يدير برأسه من أمامها يتفوه بصوت يملؤه الحسرة:

. لقد انتهى كل شيء.

بشيء من الضيق المفتعل وعيناها تلمعان ببريق من السعادة التي تحاول إخفاءها بصعوبة وبنبرات صوت تتراقص قالت:

. ماذا حدث؟ أبعد كل تلك السنوات؟

. لقد رفض والدي الزواج منها وأيضا أبيها لعدم حضور أهلي.

تراقص قلبها لذلك الحديث قائلة:

. أنت فعلت ما بوسعك من أجلها وتمسكت بها لآخر لحظة فلا تحمل نفسك عبئًا لا تقدر على احتماله.

صمت قليلًا يفكر بحديثها ثم بادرها قائلًا:

.كان يجب ألا أوعدها بما لا أقدر على تنفيذه.

بعيون يفيض بهما الحب نظرت إليه قائلة:

. إنه الأمل الذي لا نمل منه حتى الرمق الأخير برغم كل الصعاب.

ظلت تحاوره وتجادله حتى استطاعت أن تزيل ما بنفسه من هم وتركته بعد عدة ساعات قضتها بصحبته منتشية بوجودها معه طيلة هذا الوقت، وتكرر اللقاء وأصبح هو من ينتظرها بعد انتهاء ساعات العمل؛ لتترك له العنان ليحدثها عن محبوبته وتنصت إليه ويزداد قلبها تعلقًا به، حتى امتنع عن الحضور لعدة أيام واتصلت بمنزله فأعلمتها والدته بمرضه الشديد، فذهبت له بصحبة والدها للاطمئنان عليه.

في غرفته بالبيت أفاق من غفوته ليجدها أمامه وبيدها بضع أزهار تضعها بجواره وتتحرك في الغرفة كأنها تخصها، ووالدته تبرق عيناها بسعادة وجودها وتثني عليها بأعذب الكلمات، أحس بارتباك وقال بلسان يتلعثم قليلًا:

. لقد أتعبتك معي.

. لم أفعل شيئًا يستحق الشكر أنت أغلى الناس عندي.

. قامت والدته من مجلسها متعللة بالذهاب لإحضار طعام يتناوله مراقبة لهما من بعيد.

اقتربت منه هامسة:

.كدت أجن عند علمي بمرضك.

زاغت عيناه تحاول البحث عن كلمات فلم يسعه سوى الصمت حينما دخل والدها ينقذه من حيرته قائلًا:

. الحمد لله لقد صرت أفضل فعندما أبلغتني راندا جئنا للاطمئنان عليك.

– اعتذر لإزعاجك وكنت أتمنى لقاءك في أجواء أفضل.

. إن شاء الله في الأيام القادمة بعد تمام شفائك واسترداد عافيتك، استأذنكم بالانصراف حتى ترتاح.

حاولوا إثناءه عن الرحيل لكنه تعلل بكثرة أعماله وغادر مع ابنته تودعه بعيون متشبثة تهتك ستر مشاعرها المخبأة بين صدرها على مرأى من والدته التي أخبرته بعد رحيلهما:

. إنها تحبك كثيرًا ما رأيك نخطبها لك.

. أرجوك يا أمي اتركيني أنا متعب.

في غرفته وقف أمام المرآة يعدل رابطة عنقه، فبعد قليل سيرتدي في إصبعه خاتم عروسه، جمع صورهما ومعه حب السنوات وقلبه المبعثر بحبها في صندوق أغلقه ووضعه بعيدًا عن عينيه، ليعلو نداء والدته من الخارج:

. سنتأخر أسرع راندا في انتظارنا.

يفتح الباب وقلبه لم يزل يحمل غصة لا تريد فراقه قائلًا:

. لقد انتهيت هيا بنا.

علت الزغاريد وأضواء الفلاشات تغمره وصورتها تتراقص أمامه فيحاول تمزيقها، فإنه يتهيأ لبدء حياة جديدة ولا يجوز التفكير في الماضي، فقد غمرته راندا بحنان لاحظه الجميع وخاصة والديه وذلك شجعه على الارتباط بها.

***

مرت ياسمين بأوقات عصيبة لكن القرب من عائلة حنان غمرها بوجودها بينهم وخفف عنها وأنساها وطأة صدمتها، وجعل أجنحة الحب تغمر قلب أدهم أخو حنان الأكبر، ليظل بالمنزل عند معرفته بحضورها ويتهيأ للحديث إليها والذهاب معهما لأي مكان، حتى فاجأتها حنان في إحدى المرات قائلة:

. أريد رأيك بأمر ما.

. منذ متى وأنت تخجلين مني.

. لأن هذا الأمر لا يخصني بل يخصك.

. انتابها بعض الضيق لهواجسها:

. أيتعلق الأمر بأنور أحاول الاتصال بك؟

. لا بل أدهم أخي يريد الزواج منك.

ابتسمت كالبلهاء لما سمعته.

. ما بك إنه يحبك بجنون!

. لا أدري ما أقول فأنا أعتبره أخًا لي.

. أنا أريدك زوجة لأخي.

. إذًا اتركي لي فرصة للتفكير.

. أنتِ في احتياج لنسيان الماضي وبدء صفحة جديدة، فكري جيدًا لن أتعجل معرفة رأيك الآن.

تلاقى الماضي والحاضر بعقلها في صدام، فقد استطاعت الأيام أن تنسيها أنور وفعلته، لكن ما حدث ترك بداخلها جرحًا غائرًا لم يندمل بعد جعلها غير مستعدة لبدء حياة جديدة، خاصة الآن لذا قررت إعلام والديها للأخذ برأيهما:

في غرفة المعيشة اجتمع ثلاثتهم بمنزل والدها الذى تركه لهم واتخذ غيره عند انفصاله عن والدتهم حتى لا تتأثر ياسمين وأخواتها بترك البيت الذى اعتادوا عليه لتبادرهم بالحديث:

. أبي، أمي لقد جمعتكما اليوم لأني أحتاج رأيكما معي.

انتاب والدتها التعجب والقلق:

. ماذا حدث؟

. أدهم شقيق حنان يريد الزواج مني.

ارتسمت أسارير السعادة على ملامحهما وقال والدها:

. وما السبب في القلق والتوتر الذي يبدو عليك.

. لا أقدر على تحديد مشاعري نحوه.

. يا بنيتي أتحبيه.

. لا أدري فقط أرتاح لحديثه.

فقالت والدتها:

. أما زال قلبك متعلقًا بأنور.

. لا يا أمي بعد معرفتي بخطبته زال كل شيء بداخلي، فلا أقدر أن أنسى جرحه لي بحديثه عن رفض أبيه لزواجنا لانفصالكما وزواجه من راندا صديقتنا لكني غير مهيأة لبدء حياة جديدة.

قاطع الأب حديثها:

. اخبري حنان بموافقتك المبدئية واجعليه يأتي مع عائلته؛ لنتعرف عليه، ولن يجبرك أحد عن الزواج رغمًا عنك.

هدأت نفسها واستكانت لحديث والدها.

اجتمعت الأسرة لاستقبال أدهم وعائلته والترحاب بهم وامتد اللقاء لبضع ساعات كثر فيها الحديث وتعالت الضحكات وطلبها للزواج من أبيها، وتمت قراءة الفاتحة وتحديد موعد الخطبة، لم يصدر عن ياسمين اعتراض كما توقعوا فكانت فرحة هادئة كمن يساق في طريق محتوم لا يقوى على التنحي عنه أو الاعتراض.

زفت إليه فرحة بفستانها الأبيض تتأبط ذراعيه في حفل بهيج حضره أهل العروسين، تستقبل حياتها الجديدة بأسرة ينير عقولها مصابيح التحضر والرقي، وحبيب غمرها بفيض هائل من المحبة والمعاملة الحسنة على مدار سنوات زواجهما الذى أثمر عن ابنتيها قرة عينيها سما ورؤى.

بدا عليها الضيق لتعثر قدم رؤى أثناء نزولها من الأرجوحة وبكائها لتحتضنها حتى هدأت منادية على أختها للرحيل.

أمام بوابة الخروج تهيأ الاثنان للمغادرة تمسك أيديهما بأبنائهما، لتلتقي نظراتهما تبحث عن بعض من النسمات الدافئة التي جمعتهما في الماضي فلا تلقاها، لقد أصبحا غريبين التقيا على شاطئ نهر ثم أبحر كل منهما إلى وجهته، كانت نظراته خجلة لاعتذار تأخر سنوات لوعد أخلفه، أما هي فأسدلت جفنيها ومضت في وجهتها لا تحمل له سوى ذكرى مضت لأرواح تألفت يومًا وحب أبدلته الأيام.

عناق الذكريات

عندما تعامدت الشمس في الأفق، اتكأ الرجل العجوز على حافة السور الخشبي للشرفة بإحدى البنايات السكنية بحي مصر القديمة ذات الطراز القديم مرتفع السقف، بديع المعمار.

يتابع عودة الفتيات من المدارس كزهرات متفتحات يتغامزن بقصص الهوى، يتبادر إلى أذنه أصداء أصوات الأطفال عبر الميكرفون تتغنى بالنشيد الوطني في الطابور، نفير السيارات المتعجلة للحراك، وسائق (توك توك) يجاهد كالأفعى للمرور بينها.

تململت قدماه المُقوستان من الوقوف، فجلس على الكرسي الخيزران يريح ظهره للوراء، وارتدى نظارة القراءة ذات السلسلة المدلاة حول رقبته مطالعًا الصحيفة.

دقائق يقضيها بين الصفحات إلى أن لمحت عيناه زيادة مرتبات المعاشات فتهللت أساريره، فنفقات الدواء تتضاعف والمرض يتغلغل بالجسد ويمتص رحيقه.

بالأمس أكمل السبعين واحتفل معه الأبناء والأحفاد، كان المنزل عامرًا بضجيج أسعد قلبه وآنس وحشته وأشاع الدفء بين جدرانه الباردة بعد وفاة زوجته وزواج أبنائه.

نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط فوجدها تشير إلى الواحدة ظهرًا، العقارب تدور، أعمارنا تمضي، الطريق مُكدَّسٌ يلفظ سيارةً تلو الأخرى، الوقت يمر بطيئًا، لقد أصبح ضيفًا ثقيلًا يريد المغادرة إلى الحياة الدائمة، أمسك القلم لحل لغز الكلمات المتقاطعة، يحك بأنامله المرتعشةِ الصحراء الممتدة برأسه.

تراءى إلى أذنه هدير الماء المتدفق عبر الصنبور، طوى الجريدة وألقاها على المنضدة المجاورة له، قام من مجلسه لإغلاقه متكئًا على عصاه، دءوب الخطوات، محدثًا أزيزًا من ثقل جسده الممتلئ عند المرور بأرض الردهة الخشبية مُزينة الجدران بصورة زفاف جمعته بزوجته، وأخرى اجتمعت بها أسرته في حفلة تخرج ابنته الصغرى من الجامعة.

أغلق الصنبور وعند عودته رنا ببصره إلى إحدى الحجرات فدلف إليها، أنار المصباح مستدير الرأس المعلق في السقف، جلس على المقعد خلف المكتب ذي الأرجل المرتفعة المزخرفة، امتدت يده لأحد الأدراج يُفرغ ما به من خطابات صفراء خطها له أصدقاؤه وأقاربه في الأعياد والمناسبات منذ العشرين من عمره، و(ألبوم) صور قديم.

استند بظهره إلى المقعد سابحًا بين الصفحات منتشيًا بعبق الورق الأصفر، معانقًا الذكريات التي تحويها.

هذا خطاب عتاب من صديق له انقطع عن مراسلته، وآخر من أول حبيبة له في الجامعة، آخر من والده عند سفره في الخارج في إحدى البعثات التابعة لعمله.

ظلَّ يطالع حتى مالت رأسه على صدره وغطَّ في سُباتٍ عميقٍ استيقظ منه على دوي ارتطام بالخارج، فقام من مجلسه متفقدًا، فوجد الشرفة ارتطمت بفعل الهواء فأغلقها وعند استدارته انتفض جسده وتصلبت شعرات رأسه، واقشعر بدنه لرؤيته طفلًا صغيرًا في السادسة من عمره واقفًا أمامه، صدرت منه صرخةً عاليةً فزع لها الطفلُ وهرول للاختباء وراء أحد المقاعد جالسًا القرفصاء.

بعدما هدأت النبضات العالية نادى عليه يحثه على المجيء قائلًا:

– يا صغيري أقبل هنا.

بنظرة حائرة مترقبة جاء له فبادره متسائلًا:

– ما اسمك؟

لم يجِبه.

– كيف أتيت إلى بيتي؟

لم يكترث بحديثه ذاهبًا لرؤية المارة من خلال الفتحات الفاصلة بين أعمدة الشرفة.

وقف الرجل شاردًا لبضع لحظات، ثم قال:

– احضر لتأخذ بعض الحلوى.

فهرول باسطًا يده إليه قائلًا:

- أعطني إياها.

تحسس قطع الحلوى التي استقرت في جيب سرواله ثم تناول كفه الصغير ودسَّها فيه، فنزع غلافها والتهمها سريعًا ثم هرول من أمامه للعب بنحلة خشبية كانت بحوزته عاقدًا الحبل حولها ثم أفلتها هاويًا بها على الأرض، دارت سريعًا ثم تباطأت حتى توقفت.

أغراه رؤيتها لطلبها منه قائلًا:

- أتسمح لي باللعب بها.

- تفضل.

بأصابع مرتعشة أمسكها عاقدًا الحبل حولها وألقاها فسقطت طريحة الأرض واجتاح الألم كتفه.

كان في صغره مع إشراقات كل صباح يستيقظ كبقية أطفال الحارة على صوت أم كلثوم شاديةً: "يا صباح الخير يالي معانا" قادما عبر أثير الإذاعة، لتحثهم على الصحو بتفاؤل لتناول الإفطار ثم النزول إلى الحارة طيلة اليوم للعب، والتشاجر فيما بينهم، والتصالح بعد بضع دقائق من العتاب، وتناول ما لذ وطاب من أي بيت تهفو أنفسهم لما به.

فهذه رائحة الأبخرة الدافئة المتصاعدة من الخبز تملأ الأنوف، فتمتد الأيادي الصغيرة لالتقاطه والتهامه، ومعاودة اللعب بالكرة والنحلة وكرات (البلي) الصغير.

كان الفائز الدائم بين أقرانه في تدويرها وحملها على كفه الصغير، لكن مهارته بددتها السنون فداء السكر نخر بأعصاب جسده.

ألح عليه الطفل قائلًا:

- كرِّرْها من أجلي.

- أعتذر لك فقد تعبت، ابحث عن لعبة أخرى.

بحث بين أغراضه وأحضر كرة مصنوعة من الجوارب قائلًا:

- إذن نلعب بالكرة.

النظرات تتوسل، والمفاصل تتأوه من ثقل أحمالها، لكن من أجل البراءة التي تطفو على قسماته وتلوح داخل قلبه تحامل على جسده الواهن وركلها له؛ لتتدحرج عبر الردهة مستقرة أمام باب إحدى الحجرات، كانت الأضواء قادمةً من الشق تحت الباب، فهمَّ بالإمساك بالمقبض فسمع صوتًا عاليًا ارتعدت له فرائصه ذعرًا، فهرول عائدًا إلى الرجل وارتمى بين أحضانه لم ينبس بكلمة، فقط أشار إلى الغرفة.

- لا تخف أنا بجوارك سأحضر معك لأرى ما قد هيَّأه لك خيالك.

أمسك المقبض وفتح الباب، وبنظرة فاحصة كآلة تمسح المكان، كان هناك فتى ذو شعر كثيف مشعث الرأس، نحيل البنيان، استند بظهره على السرير عاقدًا يده على صدره. متمايلًا برأسه ساكرًا

مسدل الأهداب بوهج الكلمات المنسابة عبر مسامعه، الصادرة من المذياع البني المجاور له فوق المنضدة كنبع الماء المتدفق في الوديان ترويه وتزهر أشجاره.

وقف الرجل لبرهة مشرئب العنق مشدوهًا من الفتى الراقد أمامه على السرير ذي الأعمدة النحاسية، مرتديًا جلبابًا من الكستور، ويجاوره هذا الصندوق بنيِّ اللون ذي الأزرار الدائرية التي تخالها عينين تتلصصان عليك.

ظلَّ ناظرًا إليه حتى بادره قائلًا:

– تفضل بالدخول.

كان الطفل ممسكًا بطرف بنطاله خائفًا، فقال له:

– لا تخف لن يؤذيك أحد.

دخل الغرفة جلس على أقرب مقعد بجواره، متكئًا على عصاه مقوسة اليد، متفرسًا ملامح الشاب بنظارته الدائرية ذات الإطار الأسود عاقدًا بين حاجبيه، لمح الشابُ ما ارتسم على وجهه فبادره قائلا:

– لم تنظر إليَّ هكذا؟

– من أنت؟ فلم يسبق لي رؤياك.

ضحك الشاب بقهقهة ساخرة:

– دائما تراني فهذا بيتنا.

زادت حيرة الرجل العجوز وكاد يفقد صوابه متمنِّيًا الإمساك بعصاه هاويًا بها عليه، لكنه امتلك زمامَ نفسِهِ ونظرَ له شذرًا قائلًا:

– لكن لا أعرفك!

– من قال ذلك فثلاثتنا أصدقاء دائمين نحيا معا.

شعر بحنق بالغ؛ لنفاد صبره، أحس به الشاب فهوَّن عليه قائلًا:

– لا تتضايق يكفينا أننا نتذكرك

تدفقت الدماء برأسه بلا هوادة ونظر له بحيرة كادت تفتك بعقله ثم لاذ بصمت مطبق لجدال لا طاقة له به.

– ابق معي نتسامر قليلا.

طأطأ رأسه بالموافقة وغادر الطفل الحجرة للعب بالكرة.

كانت عيناه كعدسة الكاميرا تلتقط صورًا متتابعة لمحتويات الحجرة، حتى توقفت عند صورة معلقة بالحائط، كانت لرجل ذي هيئة مهيبة، يحد شفتيه الغليظتين شاربٌ رفيعٌ، مغطى الرأس بـ (طربوش) أحمر، لقد مرت أعوام على وفاة أبيه، لكن الشوق له بحر لا ينضب وكلماته لم تزل تتردد بمسامعه لم ينسها.

لاحظ الشاب عينيه مصوبة نحو الصورة فقال له:

– أجلست معي لتطالع الحائط أم نتحدث سويًا؟

– اعذرني ففي القلب غصة لفراق الأحباب.

– أبعد تلك السنوات؟

– نعم.

– وقسوته وإهانته لك أحيانًا!

– لمحبة وليس لمقت، فكم تحمَّل كثيرًا وأخذ على عاتقه عبء تربيتنا بمفرده بعد وفاة والدتي ونحن صغار، كان موظفًا بإحدى المدارس راتبه قليل، ينفق على خمسة أبناء في مراحل تعليم مختلفة، كانت نظرة عينيه تبث قشعريرة ببدني.

في الخامسة عشر من عمري تمردت على حذائي دائم التصليح، وقميصي وبطالي اللذان لا أملك غيرهما وثُرتُ بوجهه قائلا:

– أريد نقودا لأشتري ملابس جديدة لأبدو مثل أقراني.

لم يتفوه بكلمة، بل صفعني وشعرت بلظى نار لفحت أذني ووجنتي، ورأيت ألوان الطيف بعيني.

تركت المنزل هائمًا في الطرقات متعجبًا كيف طاوعته يداه، وأنا الابن الأوسط المقرب له، على فعل ذلك، حتى شعرت بالجوع وكانت الساعة قد قاربت على العاشرة مساءً فقررت الذهاب سيرًا إلى أحد الأصدقاء لانعدام النقود بجيبي، لأجد عنده ما أسد به رمق أمعائي، وعند وصولي وجدت أخي الكبير واقفًا بانتظاري، فجريت عند رؤيته، فقد كنت أرفض العودة لكنه أسرع خلفي وأمسكني بقوة قائلًا:

– لا يجوز أن تترك بيت والدك.

– ألم ترَ بعينيك ما فعله بي.

– مهما حدث فهو والدك.

عند عودتي طلب من أخي الانصراف واقترب مني فخشيت أن يصفعني فخبأت وجهي فأزاح يدي وأخذني بصدره رابطًا على كتفي قائلًا:

– إن كنت أملك المال لأحضرت لك ما تريد، لكن ضيق ذات اليد قيدني.

رأيت نظرة انكسار بعينيه لم أرها قط بحياتي، شعرت بخجل كاد يفتك بي وقبلت يديه ندما، لم أكن أدري أن هذا الوجه الذي يبدو أمامنا صارمًا عاقدًا الجبين متجهما هو قلب امتلأ بحنان لا نعلمه. ومنذ ذلك اليوم صرت شخصًا آخر، اجتهدت في دراستي والتحقت بالعمل صيفًا لأشتري ما

أحتاج إليه، حتى حصلت على الثانوية العامة والتحقت بالجامعة، ومرَّ وقتٌ وجاء آخر، وها أنا أجلس معك رجل تملَّك منه العجز.

أدار مؤشر المذياع لسماع الأغاني وارتحل الاثنان فى دروب الهوى، وعلت الأنفاس بالصدور، حتى قال الرجل العجوز:

– لقد أعادت لي تلك الكلمات مشاعر مخبأة.

– إنها بداخلك لكن تراكم عليها غبار السنين وآن وقتها لتخرج للعلن.

انسابت العبرات من عينيه فحدَّثه بنبرة أسى قائلا:

– أتلك العبرات لهوى لم تظفر به؟

– بل شوقا لأحياه من جديد؟

– وما المانع، فمادام ينبض قلبك فارتحل في دروب العشق؟

صدرت منه ابتسامة بلهاء من طرف ثغره قائلًا:

– أنا أفضِّل النُعاسَ على وسادتي، والهوى سُهدٌ وولع، والعقل ألقى بداخلي شباكه فأصبحت أسيرًا لا أقدر على الفرار منه.

– لكن لم أزل شابًا حرًا طليقًا أتوق لشذا كلِّ زهرة أتمتع بأريجها الفواح.

– جميعنا أحببنا، فقلوبنا اشتعلت ثم هدأ لظاها في رحلة بحث عن وجه باسم نرتاح لرؤياه، قلب نهرع إليه باشتياق، عقل راجح يسدي إلينا النصائح، حضن دافئ يحمينا من قسوة الحياة، لسان صادق لا يعرف كذب الأقوال، عين يقظة تحرسنا عند المنام، قلب نابض بحبِّنا إلى منتهاه.

– يا لك من رجل مولع بالعشق.

– فما أجمله، فالهوى أكسير الحياة.

دخل الطفلُ إلى الغرفة احتضن الرجل الهَرِم، ثم طافَ حولَه وألقى بجسده على ظهره، عاقدًا ذراعيه حول عنقه قائلا:

– قم من مجلسك.

– ما الذي يدفعني أن أطيعَكَ، أنا رجل عجوز استبد به الألم.

– من أجلي قمْ.

حمله على ظهره والفقرات تئن لإرضائه.

تعالت قهقهة الشاب قائلًا:

– ما الذي يفعله بكْ أنزله من فوق ظهرك، إنه حقًا طفل شقي جالب للمتاعب.

فجلس وأنزله على أقرب كرسي قائلًا:

– اجلس هنا هادئًا.

مضى بضع دقائق حتى بدأ العبث بكل متعلقات الغرفة، فاتحًا أدراج المكتب مبعثرًا محتوياته، طالبًا بعض الأوراق والأقلام للرسم والتلوين فقام الشاب على إثر إلحاحه منزعجًا وأمسكه رافعًا له، قائلا:

– كف عن التكرار سأحضر لك بعض الأوراق لكن اجلس ولا تتحرك من مكانك.

بعد قليل تململ الطفل بالجلوس وألقى بالأقلام والأوراق، قافزًا بساق واحدة على أرض الغرفة، ثم اقترب من الرجل العجوز يحثه على اللعب قائلًا:

– قم العب معي.

– لا أقدر على السير بساقين فكيف أقفز بواحدة.

رنا الرجل إلى الشاب قائلًا:

– قم اقفز معه، لو كنت أقدر لفعلتها.

– لا تكترث له إنْ وجوده شقاء لجسدك أما معي فهنيئًا لك.

– لا بل شقاء للروح.

– فما أجمل مداعبتك لنسمات الحب الوارفة بين ردهات قلبك، وأرى سحرها المخبأ بين أهداب عينيك ويسرح بها خلدك.

أسدل جفنيك ارتحل معي فى عالم وردي حالم، متنسِّما عبق الحب الذي لا ينضب أبدًا.

– آه منك لقد حررت مشاعري من محبسها.

– وأنت أطربت مسامعي بحديثك.

أحس الطفل بغيرة لحديثهما معا، فأمسك بالكرة وركلها إلى الرجل العجوز فاصطدمت بوجهه وأسقطت نظارته على الأرض فكسرتها نصفين، فتملَّكه الغيظ الشديد قائلًا:

– ابتعد عني لقد ضقت ذرعًا بأفعالك، كنت هانئ العيش بمفردي.

قال الطفل متعجبًا:

– ألم تكن دائم الشكوى والتبرم والضيق من وحدتك.

– أفضل من هذا الصخب .

– آسف لن أخطئ مرة أخرى.

قال الشاب:

أخرجه من الغرفة فحفلة عيد الربيع قاربت على البدء.

جلس الطفل على الكرسي ووجهه يبدو عليه الأسى والتبرُّم، قائلًا:

– لن أسبب لكم الإزعاج، لكن اتركوني معكم.

رد عليه الشاب بصوتٍ عالٍ:

– تقول هذا وبعد دقائق نفزع لإحدى كوارثك، اخرج من هنا.

اتقدت عيناه وقام من مقعده واقفًا أمامه متنمرا للفتك به، قائلا:

– أنا طفل اصفحوا لي زلات الصغار.

أمسكه الشاب من ذراعيه معنفا له:

– صوتك صار عاليًا ألا تدري ما قد أفعله بك.

– أعلم لكن لا يهمني.

توجه إلى الرجل العجوز مستعطفا له بعبراته المنسابة.

– أخبره أننا رفقاء لا نقدر على الابتعاد عن بعضنا.

بدا على تقاسيم وجه الرجل استكانة أزعجت الشاب فقال:

– لا تكترث لتلك الدموع إن وجوده شقاء لك، أخرجه من الغرفة فالمقدمة الموسيقية قربت على الانتهاء، ونريد أن ننعم بالهدوء لسماع الغناء وارتشاف كوب الشاي، فالطفل عبء لا يمكن احتماله بعد الآن.

انتفضت عروق الطفل الصغير لحديثه وانقض عليه قاضما يده بضراوة صرخ معها الشاب، وقام على إثرها العجوز مباعدًا بينهما قائلا:

– صمتًا أحبائي الصغار، أنا لا أقدر على التخلي عنكما، فأنتما إكسير سعادتي الدائمة، بمرحي مع الطفل الشقي أو إبحاري معك في ركاب العشق أيها الشاب الفتي، واليوم لم أعد طفلًا ولا شابًا، لم يبق لي غير شيخوختي التي تتحملني، وأنا أخونها بالترحال معكما، هيا اجلسا هادئين سأذهب لأحضر لكما المشروب لاحتسائه والاستماع للحفلة معا.

أومأت الرءوس بالموافقة وذهب إلى المطبخ وأحضره فتعثرت قدماه في البساط وسقطت من يده محدثةً دويًا من جرَّاء ارتطامها بالأرض.

انتزعه صوت الارتطام كغريق أنقذ جسده من قاع بحر وعادت روحه المسلوبة، متصببًا قطرات العرق المغامرة، زائغ العينين، ثقيل الحراك كأنه مقيد بالأثقال قابعا على مقعده خلف المكتب، فرك بقبضته عينيه المتورمتين، نظر إلى ساعة معصمه فوجدها تشير إلى السابعة مساءً، بحث عن نظارته، فوجدها مدلاة من رقبته، أطفأ المذياع الدائر مؤشره على محطة إذاعة الأغاني، وارتدى نظارته وأخذ يعيد محتويات الأدراج عندما همَّ بإغلاق (ألبوم) الصور القديم المفتوح أمامه.

تبسم لرؤيته صورًا التُقطت له في طفولته، حاملا الكرة وأخرى في شبابه جالسًا على السرير، عاقدًا يديه حول صدره.

عودة الروح

رنين الهاتف لاتصال الطبيب، كقطرات المطر المتساقطة على أرض جدباء فروتها بشوق للقاء مرتقب بعد غياب دام عدة أشهر، فأسرعت سعاد وابنتاها بارتداء ملابسهن، وإِسْتَقَلْنَ سيارة أجرة تقلهن إلى المستشفى، كانت لُجة الأفكار سريعةً تلتهم عقلهن مثل عجلات السيارة على الطريق، زفرت سعاد تنهيدة اشتياق لهذا الابن الغائب الذي تتغلغل محبته أعماق قلبها برغم سوء أفعاله.

توقفت السيارة أمام الباب، عبرن البوابة الحديدية متوجهين لغرفة الطبيب الذي استقبلهن بحفاوة بالغة، وهنأهن بشفائه، واصطحبهن لمكان تواجده مع زملائه.

في الحديقة وارفة الظلال مدت أشعة الشمس الساطعة خيوطها الذهبية، لتمزج الدفء مع النسيم العليل حول أجساد جالسة على أرض العشبة الندية، يملأ الأمل عيونهم بغد مشرق، وإرادة مكنتهم من تحرير أجسادهم من براثن المرض الذي كاد يفتك بهم.

عند رؤيته لم يصدقن أن الفتى ذا الجسد النحيل، والعينين متسعتي الأحداق، واليدين المرتعشتين قد عاد للحياة صحيح البنيان، يتحدث إلى زملائه بطلاقته المعهودة عن رحلة عودته من الظلام إلى النور:

. بدايتي كانت بالمرحلة الثانوية بدافع الفضول والتجربة، لم أعلم وقتها أنه سينتهي بي الحال إلى عالم مظلم أصبحت فيه بقايا إنسان، لا يمحو من خلدي أول الأنفاس التي ارتشفتها من تبغ اللفافة المعبأة بالحشيش، حينها سعلت بشدة، وعلت الدماء برأسي، واحمرت مقلتاي، وتهاوت أوصالي وبدت أسيرًا مترنحًا أصطدم بالمارة في الطريق، وتلك بداية سقوطي في الدوامة.

كانت والدته وأختيه يتابعون حديثه، وقد عصفت بأذهانهم الكثير من الأحداث التي جمعتهم، فقد كان جالبًا للمتاعب منذ صغره، و من أجله بيعت الفيلا لتوفير المال لعلاجه، وانتقلوا إلى المنزل الذي ترعرعوا بين جدرانه وشهد طفولتهم.

كان المنزل يعج بصخب الحاضرين، المباركات تتبادل على الألسنة، لتهنئة أحمد بعيد ميلاده الثالث، الأطفال تتحرك للعب والركض وراء بعضهم، حينما اصطدم أحمد بمنضدة وضع عليها فازة ثمينة اقتنتها والدته من أحد المزادات، فسقطت مهشمة على الأرض، وهرول مختبئًا خلف إحدى المقاعد، تنبهت شقيقته مها ذات السبع سنوات لصوت الارتطام وذهبت متفقدة ما حدث فأمسكت بإحدى القطع تتأملها، حين حضرت والدتها معنفةً لها:

. لما فعلتِ ذلك فإنها ثمينة؟

. لم أفعل شيئًا فأحمد من أسقطها.

. أنتِ كاذبة دائمًا تتهمين أخيك بأشياء لم يقترفها.

جاء أحمد يَكيل الاتهامات لأخته:

لقد رأيتها تمسكها وتلقيها أرضًا.

. أنت كاذب صدقيني يا أمي لم أفعل شيئًا.

امتدت يدها الصغيرة البضة لتعنيفه فحالت الأم بينهما ونهرتها:

. ابتعدي عن أخيك الصغير.

حزنت مها، وذهبت إلى غرفتها، وأوصدت الباب خلفها.

كان منير يحدث أحد أصدقائه عندما أتته ندى شقيقتهما الوسطى ذات الستة أعوام، وطلبت محادثته بصوت هامس، وأفضت له بما حدث، بدا على سحناته الضيق من تحيز سعاد الدائم لأحمد وسألها:

. وأين مها الآن؟

. في غرفتها.

. لما لم تقولي الحقيقة لوالدتك؟

. خشيت أن أقول فألقى العقاب والتوبيخ.

فتح الباب الموصد مرحًا يسألها بصوت هادئ لبث الطمأنينة بنفسها:

. ماذا تفعل صغيرتي الشقية؟

لكن تلك الروح المرحة سرعان ما انطفأت حين رآها جالسة على طرف السرير، وقد ضمت ساقيها إلى صدرها وأحاطتها بذراعيها في وضعية كئيبة، تقدم نحوها في جذع وقد لاحظ نظراتها المنكسرة فبادرته بصوت متحشرج بالعبرات:

. لم أكسر الفاز.

. أعلم يا حبيبتي، كفى نحيبًا، وأخرج منديلًا من جيبه، وجفف به عبراتها المنحدرة على وجهها، وضمها لصدره بحنو قائلًا:

. لا يجوز البكاء وأصدقاؤك بالخارج ينتظرونك، هيا بنا لقد تأخرتِ عليهم يا أميرة قلبي.

فلاحت منها ابتسامة ذابلة ثم ذهبت مع أختها للعب.

انتهى الحفل وغادر الحاضرون، جلست سهى أمام المرآة لإزالة آثار المكياج، ومنير على الأريكة مُطالعًا لبعض الأوراق، حالما انتهت وتهيأت للخلود إلى مخدعها بادرها قائلًا:

. أريد الحديث معكِ.

. غدًا، فأنا متعبة اليوم.

. لن أنتظر للغد لقد فاض بي الكيل من أفعالك.

استدارت له ونظرات الحنق تملأها قائلة:

. أنا من يحق له قول هذا فدائمًا مشغول عني بالعمل، صديقاتي يسافرن ويخرجن مع أزواجهن إلا أنت حتى أوراق عملك تحضرها معك لغرفة نومنا.

.كفي عن مقارنتي بأزواج صديقاتك، فكل ذلك من أجل توفير متطلباتك التي لا تنتهي.

. من حقك أن تحضر لي كل ما أريده.

. وأنا لم أقصر معكِ، لكن لأفعل ذلك لا بد أن تتحملي غيابي عنكِ لفترات طويلة، وتراعي أبناءنا، أخبريني ما الذي فعلتيه اليوم مع الأولاد؟

جاهدت ذاكرتها لتلتقط من بين ثنياتها عن مقصده فخذلتها مرددة:

. لم يحدث شئيًا.

. من كسر الفازة؟

عقدت يدها أمام صدرها وهزت قدمها في ارتعاشه اهتز لها كامل جسدها وفتحت ثغرها عن أهه عالية:

. أقامت مها بالشكوى لك؟

. لما تعاملين ابنتك بتلك القسوة؟

نظرت له رافعة حاجبيها في استغراب مشوب بضيق لتجيبه:

. لأنها أخطأت وتستحق العقاب.

. رفقًا إنهم أطفال ولا يجوز تحيزك الدائم لأحمد برغم سوء أفعاله.

انفجر البركان وتناثرت حممه وعلا صوتها بوابل من الاتهامات الموجهة له لتدليله الزائد للفتيات وقسوته على أحمد برغم حداثة عمره.

بوجه ممتعض مستنكرًا من أسلوبها بالحديث قال:

. اخفضي صوتك حتى لا يسمعك الأولاد.

. أريدهم أن يسمعوا ويعرفوا كم أمقت الحياة معك.

استيقظ الأولاد من فراشهم وجاءوا على صوتها العالي، عند رؤيتها لمها أمسكتها من ذراعيها معنفةً لها:

. أتشتكين لوالدك مني؟

بصوت واهن تجيبها:

. لا بل رويت له ما حدث.

. أنتِ فتاة أبيك المُدللة الكاذبة.

نحت الفتاة جانبًا بقوة فأسقطتها أرضًا مغادرة الغرفة، فتمالك زمام غضبه، وأمسك يد ابنته لتنهض مربتًا على كتفيها، وقد لمح بوادر العبرات تغادر أعتاب رموشها تروم الانحدار على وجنتيها.

صدرت من أحمد ابتسامة لتعنيف أخته أمامه لم تلبث أن اختفت، وحل محلها الوجوم لمغادرة أمه مهرولًا وراءها.

أحس الأب بغصة تجتاحه لأن هذه المرأة أم أولاده.

عادت الحياة اليومية إلى نفس النسق الروتيني، لكن جدار البرود لا يزال قائمًا، وجد منير سلواه لعدم التفاهم، وسوء علاقتهما بالانغماس في العمل طيلة الوقت، وعند عودته للمنزل يقضي وقته مع أولاده لمحوه، ودأب الصدع الدائم بينهما لتنساب الأيام سريعًا كقطرات الماء من بين أنامله لا يقدر أن يمنعها.

جلس منير أمام مكتب حجرته بالشركة، يتابع إمضاء عدة أوراق عندما استقبل رسالة من ندى تلقى له فيها تحية الصباح لخروجها باكرًا قبل رؤيته، قام بالرد عليها ثم أخذ يتأمل صورتها مع إخوتها على هاتفه كم يشعر بمحبته لهم، فقد تحمل بُغض الحياة مع والدتهم طيلة تلك السنوات حتى أنهت مها وندى دراستهما من كلية الفنون، واستقلا للعمل معًا بعيدًا عن شركته في التصوير والجرافيك، لكن أحمد الغصة التي تملأ حلقه لرسوبه الدائم في جامعته الأمريكية، ولم يتبقَ سوى عام على تخرجه يتمنى انقضائه ليأخذ مكانه بالشركة، ويحمل عنه أعبائها.

رقات متعجلة على باب المكتب تبعها اقتحام سريع ليكون أحمد فنظر له أمر:

. انتظرني بالخارج حتى الانتهاء.

. ضحكت السكرتيرة عندما رأته خارجًا متأففًا قائلة:

. ألم أحذرك لاجتماعه المهم بأحد العملاء.

لا أريد سماع صوتك وتأنيبك لي.

بعد نصف ساعة خرج العميل فأشار له والده بالدخول متعجبًا من حضوره قائلًا:

. إنه لغريب منك أن تأتيني باكرًا فماذا تريد؟

. سيارتك.

. وأين سيارتك؟

. أقوم بتصليحها لقد مللت منها ألن تغيرها لي؟

. أنت تعلم استيائي لإحضارها لك بسبب إصرار والدتك، لكن أعدك إن تخرجت هذا العام وجئت للعمل معي سأبدلها لك بأفضل منها.

نحى رأسه جانبًا بسئم لحديثه قائلًا:

. ألن تبلغ السائق بإعطائي المفتاح؟

. سأتصل به حالما تذهب إليها لأخذها.

. شكرًا لك يا والدي العزيز.

ضغط أحمد على مزود السرعة وتحرك سريعًا لمقابلة صديقته الحسناء والسفر للتنزه على ضفاف إحدى الشواطئ.

جلست مها وندى يتسامران بالثرثرة في غرفتهما قبل الخلود للنوم، وقد صارتا فتاتان جميلتان متقاربتان منذ طفولتهما في الأفكار والاهتمامات حتى الشكل والملامح كأنهما توأمان، بادرت مها أختها قائلة:

.كم أمقت الحياة بهذا البيت مع هذا الصبي المُدلل وأمه.

. تتحدثين كأنها ليست والدتنا وأخينا الصغير.

. أحيانًا أعتقد أنها زوجة أبينا برغم أن ملامحنا تشبهها؛ من سوء معاملتها لنا، وتدليلها له.

فضحكت ندى تتبادل أطراف الحديث معها:

. لقد بقي له عدة أشهر على تخرجه وما زالت تشعر بقلق بالغ لسهره خارج المنزل، لا تخلد للنوم إلا بعودته، لم أتذكر أنها فعلت معنا ذلك فأبي من اعتاد رعايتنا منذ طفولتنا والاهتمام بنا.

. محق حق، أدام الله عمره لنا فبدونه لا أعلم كيفية تحمل الحياة.

توقف حديثهما لدخول منير قبل التوجه إلى غرفة نومه:

. ما الذي يشغل بال أميراتي عن النوم؟

. أنت فقد تأخرت عن الحضور إلينا.

فاعتدل في جلسته على السرير ممددًا قدماه المنهكتين لإراحتها عاقدًا بين حاجبيه من دبيب الألم الممتد بجسده قائلًا:

. نعم فلم أفرغ من العمل باكرًا.

تدغدغ ندى قدميه فيضحك:

. كفي عن ذلك يا ابنتي.

. عندما تكف عن إنهاك نفسك في العمل ولا تأخذ قسطًا من الراحة.

. أنا بخير لا تشغلا بالكما.

استقام من رقدته طابعًا قُبلة على جبهة كل منهما وغادر.

قالت مها بضيق:

. امكث معنا قليلًا نشتاق إليك كثيرًا.

. غدًا فأنا اليوم مُتعبًا وأريد النوم.

بعد تركهما حانت منه وقفة أمام باب غرفة أحمد فطرقها فلم يجيب، ووجد المقبض موصودًا فأكمل سيره إلى نهاية الردهة حيث غرفته.

كان أحمد جالسًا أمام مكتبه وقد أفرغ محتويات تبغه، وفرك بها قطعة من المخدر وخلطها بها، وأعاد وضعها في لفافة أخرى وأغلقها بطرف لسانه، ثم أوقد بها نار قداحته الذهبية، قربها من شفتيه لاثمًا طرفها، مرتشفًا عبق أنفاسها المسكرة، نافثًا من فِيه سحبًا بيضاء كثيفة عبأت الغرفة، ارتحل عقله كطائر في الأفق مبتعدًا للحظات عن هذا العالم الذي يعيش به، وذلك المنزل الذي يعج بالخلاف الدائم لأب معارضًا لمتطلباته، وأخوة مثل أبيهم، وأم تقيده بمحبته وخوفها الدائم عليه، ولم يكد ينتهي بعد من سحر محبوبته التي لم يزل يرتشفها وتطوقه بغلالة سحبها البيضاء حتى سمع طرق والدته على الباب مستفسرة:

. ما تلك الرائحة أنت بخير؟

أخمد نار تبغه وفتح النافذة لتهوية الغرفة متحدثًا بصوت ناعس:

. ماذا تريدين يا أمي لقد أيقظتني من النوم.

. أردت الاطمئنان عليك، أكمل نومك.

قام من مجلسه وأعاد إشعال تبغه.

في النادي اجتمع أحمد مع أصدقائه، فإذا بفتاة جميلة المحيَّا ساحرة القوام تجاورهم في المنضدة المقابلة جالسة بمفردها فحدق بها إعجابًا وَهَمَّ للذهاب لها فصاح به أحد أصدقائه وأمسك معصمه وأجلسه:

. لا تقترب فهذه خطيبة شريف.

. أنا معجب بها.

. إنها تستحق فهي باهرة، لكن شريف صديقنا.

. صديقك أنت.

ترك مقعده وذهب لها مشدودًا بسحرها، جالسًا على الكرسي الذي أمامها مُعرفًا نفسه، انتابها الضيق لتصرفه قائلة:

. أهلًا بك لكن خطيبي قد أوشك على الحضور.

. أتطلبين مغادرتي؟

. نعم أريد الجلوس بمفردي.

قام خائب الرجاء يطرق أذنه أصوات ضحكات أقرانه الساخرة، مُغادرًا عاقدًا العزم على فعل أي شيء للحصول على تلك الفتاة وجعلها طوع أنامله.

في إحدى سهراته الماجنة كان شاردًا الذهن، غير عابئ بالمحيطين على غير عادته، دنت منه إحدى النساء وتدعى سميرة وكانت مُولعة به قائلة:

. ما يلهي محبوبي عني؟

تركها وغادر إلى الشرفة فتبعته متعجبة:

. لست أحمد الذي أعرفه تُرى ما يعكر صفوك، أهي امرأة غيري؟

. نفث دخان تبغه في وجهها، نعم.

. ومَن تكون لتفعل بك هذا.

. إنها مخطوبة.

مسحت بكفيها على شعره هامسة بصوت حنون بأذنه.

. اتركها أنا هنا معك.

. لا أنا لا ترفضني امرأة.

. لا تكدر صفو أمسيتنا سأجعلها كخاتم بإصبعك.

. كيف هذا؟

. لا تسأل فقط اعطيني أسمائهما وأرقام هواتفهما واترك الباقي لي.

. غدًا سأحضرها لك.

انفرجت سحنات وجهه واحتضنها لاثمًا شفتيها في عناق حار.

عكفت سميرة على ملاحقتهما باتصالات هاتفية ورسائل لإشعال نار الغيرة والشك بينهما، فتبددت علاقتهما وكثر شجارهما ولم يصبحا على وفاق.

في النادي جلس شريف بصحبة سهى عندما هاتف أحمد سميرة للحضور وتنفيذ ما اتفقا عليه، عند رؤيتها لهم اقتربت منه وطوقته بذراعيها طابعة قُبلة على خده مرددة:

.كم اشتقت لرؤياك، أين كنت مختفيًا، ولما امتنعت عن الاتصال بي؟

اربدت ملامحه متفرسًا لها بتعجب، وانتفض واقفًا مبتعدًا عنها متسائلًا بنبرة مُتجهمة:

. من أنتِ؟

. أنسيتني بتلك السرعة؟

. تحدثي جيدًا أنا لا أعرفك حتى أنساكِ مَن تكوني؟

. أنا سميرة حبيبة قلبك لقد كسرت قلبي بنسيانك لي.

التفت إلى سهى موجهًا حديثه لها:

. أقسم لكِ أراها لأول مرة.

لم تَنبَس بكلمة ظلت متسعة الأقداح مضطربة، فقد تبدد في الآونة الأخيرة، حتمًا تلك الفتاة وراء ذلك، لاحظت سميرة الوجوم الطارئ على سهى فزادت من النار المشتعلة بدلال أنثوي مع إيماءات بكامل جسدها قائلة:

. أهذه من تركتني من أجلها فأنا أجمل منها بكثير.

. عض على شفتيه من الغيظ وهتف منفعلًا:

. ابتعدي عني أنا لا أعرفك.

لم تحتمل سهى أكثر منذ ذلك وأخذت حقيبتها وغادرت تلم كرامتها المبعثرة، وحبها الذي أهدر بيد تلك المرأة، أمسك بذراع سميرة ونحاها جانبًا فكادت تسقط، وهرول خلف سهى التي استقلت عربتها ورحلت، زادت بينهما الريبة وعدم الثقة وباءت محاولاته بإقناعها بعدم معرفة بتلك الفتاة بالفشل، وتم فسخ الخطبة.

ظفرت سميرة بمبلغ مالي بعد أداء مهمتها بنجاح، وبدأ أحمد في التودد إلى سهى بعدما أزاح غريمه من طريقه ومد شباك الهوى حولها، فكان على علم دائم من أصدقائها المقربين بكل مكان تطأه قدماها فيسبقها إليه لإعداد المفاجآت من الهدايا أو الاحتفالات حتى تعلق قلبها به.

اقتربت ندى من مها تخبرها في أذنها بصوت هامس:

. أنا لا أصدق ما أرى.

. ولا أنا، أترين الحنان الذي بدا بعينيه، وهدوء صوته في الحديث.

. نعم لقد تبدد كمن أبدل رداءه بآخر.

. ما أجمل فرحتي بتماثله للشفاء حتى يعاود معنا ونجتمع سويًا.

تلاقت نظراتهما في صمت حزين لتذكر فقدان والدهما الذي تهفو ذكراه بداخلهما وتلوك ألسنتهما بسيرته دائمًا.

طرق الباب لتدخل السكرتيرة على منير بمكتبه تخبره بتأخر عمليات توريد البضائع.

بانفعال ضرب بيده على مكتبه قائلًا:

. أين محمود أحضريه الآن؟

أتى إليه بخطوات سريعة ماثلًا أمامه، فنظر له بجام من الغضب اخترقه وكاد يفتك به متسائلًا:

. لما تأخرت عمليات توريد البضائع؟

. لم يقصر أحد منا فالبضائع مكدسة بالميناء انتظارًا للفحص والإفراج.

. اذهب بنفسك وقم بإنهاء الإجراءات سريعًا، فالتأخير يعرضنا لغرامات مالية مع العملاء ويضر بالشركة.

شعر بوخزات تنهش صدره كنصل سكين حاد تنغرز به، فوضع يده متحسسًا له من شدة الألم، وقد بدأ الْخَدَرُ يزحف بجسده، فحاول النهوض فسقط على مقعده فاقدًا الوعي.

بغرفة "العناية المركزة" رقد منير بلا حراك مقيد بجهاز التنفس، ورسم القلب، تطالعه زوجته وابنتاه بعيون مرتبكة وألسنة تتمتم بالدعاء أن يستيقظ معافًا، عندما بدأ الليل يلملم رداءه المرصع بالنجوم، وخرجت الشمس من أكمامها، أنهى أحمد حفلته الصاخبة وذهب إليهم في المستشفى عند ما رأته ندى وبَّخته:

. أين كنت عند اتصالي بك منذ خمس ساعات؟

خاطبها متجاهلًا سؤالها بآخر.

. ما حال صحته الآن؟

. أيهمك حقًا يا لك من أحمق.

تدخلت مها في الحديث تحثهما على الهدوء ولا يجوز هذا العراك هنا، عندما خرج الطبيب فالتفوا حوله مخاطبًا لهم:

. لقد أصيب بجلطة لا ندري مدى الضرر الذي ألحقته به إلا بعد استيقاظه.

ظلت الفتاتان تجوبان الردهة ذهابًا وإيابًا وألسنتهما ترتل القرآن، وتتمتم بالدعوات، الدموع تنحدر من بين مقلتيهما هادئة حزينة، أما أحمد فلم يترك هاتفه الخلوي من يده يداعبه ببعث رسائل

لأصدقائه ونسائه للتحضير لإحدى السهرات، وسعاد لم تكف عن حديث صديقتها التي حضرت عند علمها:

. يحذرنا الطبيب من احتمال إصابته، لقد تحملته طيلة عمري لعمله وسفره الدائم لكن يظل بالمنزل أعتني به لا أقدر.

. لا تجعلي الناس تتحدث عنكِ وتقول تركت زوجها في محنته، احضري له ممرضة تتولى شئونه لا تشغلي بالك.

عاد الأب إلى المنزل عاجزًا عن تحريك نصف جسده الأيمن جالسًا على كرسي متحرك، عند دخوله غرفته التي تم نقلها في الطابق السفلي بالبيت، ظلت عيناه تتجول بين أرجاءها تكاد تجثم جدرانها على صدره من ثقل الهواء المار عبر أنفاسه، شعرت مها بذلك ففتحت له النافذة التي تطل على الحديقة مبتسمة ومرحبة به:

. لقد أنرت البيت بعودتك.

أفتر ثغره عن شبح ابتسامة باهتة فاحتضنته مُقبلة رأسه، وأخذت في الثرثرة معه لتسليته، وعندما همت بالمغادرة استوقفها قائلًا:

. احضري والدتك وأختك وأخيكِ أريد إخباركم بأمر مهم.

بتواجد الجميع التقت نظراتهم حائرة، متسائلة حتى خرج عن صمته ليفرغ ما بفيه:

. نظرًا لمرضي قررت أن يرأس أحمد مجلس إدارة الشركة.

استقبلت الأم ذلك الخبر بسعادة بالغة مهنئة أحمد الذي بدا عليه إمارات التجهم وعدم الترحيب بالمنصب.

تلاقت أعين أختيه وقد أفصحت نظراتهما بما عجزت أن تتفوه به ألسنتهما من انزعاج وضيق، فمن لا يقدر على إدارة شئون نفسه كيف يدير شركة بكامل هيئتها، لكنهما لم يقدرا على معارضة قرار أبيهما نظرًا لحالته الصحية.

أكمل الأب حديثه بأنفاس متقطعة:

. محمود مدير الشركة سيظل معك حتى تتعلم إدارة العمل بها، الآن اتركوني بمفردي.

. هل نساعدك للرقود على السرير.

. لا أريد سأخبركم إن أردت شيئًا.

أغلقوا الباب ورائهم وغادروا.

في الظهيرة ذهب أحمد لمكتبه لمتابعة العمل، وبعد إمضاء عدة أوراق تململ وأخذ مفتاح عربته وهاتفه وغادر، استوقفته السكرتيرة لتذكيره باجتماع مهم مع أحد الوفود القادمة فطالبها بالتأجيل ليذهب لمقابلة سهى لتعاتبه بحديث هادئ:

. لقد اختلفت لم تعد تحبني، ولا ترد على اتصالي بك.

. لقد أصبح منصبي يشغلني طيلة الوقت.

. حتى بالرد على رسائلي، كنت في السابق لم يكن يلهيك عني شيء، أتوجد امرأة أخرى بحياتك؟

زوى ما بين حاجبيه في انزعاج قائلًا:

. لقد أصبح حديثك بثير أعصابي أنتِ لا تقدري حجم أعبائي فوالدي قعيد، وأعباء الشركة فوق كاهلي.

وهم للانصراف فأمسكت بيده تستحلفه للجلوس مخاطبةً له بنظرات راجية فلم يعبأ، وأفلت يده منها، وارتدى نظارته وغادر.

تفرس أحمد في وجوه الحاضرين يلملم شتات نفسه المبعثرة، تتلاحم أصابع يداه في عراك في الاتجاهين فتصدر صوت خافت لا يسمعه سواه، تعشعش الدموع بين أجفانه لا تغادر أعتاب رموشه، شعر الأخصائي النفسي بما ألم به فأخبره:

. في إمكانك التوقف.

فحرك رأسه نافيًا وشهق نفسًا عميقًا بعث بداخله هدوءًا ومحى عنه توتره مكملًا حديثه:

. كان التقليد وحب المغامرة الدافع لي في تجريب كل جديد، حتى لم يعد للموت رهبة يقشعر لها قلبي أصبح عابر سبيل لا أعير له الانتباه حين يأتي زائرًا حاملًا أحبائي أمام عيناي، فجرفتني الدوامة إلى القاع غريقًا لا يوجد من ينقذه.

اشتعلت نار النرجيلة مخلفة سحب بيضاء متصاعدة من الأفواه التي تتبادلها لأخذ بضع أنفاس، عندما أخرج سعد صديقه ورقة صغيرة وأعطاها له قائلًا:

. تفضل يا صديقي العزيز.

. ما هذا؟

جرب ستشعر بأنك محلق بين السحاب وستنعم براحة لا توصف وتنفض عنك كل همومك.

. معك حق أنا مُثقل بأعباء العمل.

أخذها ووضعها على كف يده واستنشقها فشعر بارتياح غريب يملأ صدره ويمسح الأدران التي علقت بثنايا عقله.

تكرر إعطاءه "الهيروين" السم الأبيض حتى أصبح أسيرًا له.

اكتست السماء بثوبها الأسود ولمع البرق ليمزق رداءها ويفتتها إلى قطع هامشية الشكل للحظات معدودة قبل أن تستعيد امتدادها وتلملم فتاتها منذرًا بهطول أمطار غزيرة، كانت سيارة أحمد ومعه عماد وكريم أصدقائه تلتهم طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوي، للبحث عن المخدر، الوخزات تملأ أجسادهم العطشى، الحلوق تشعر بالجفاف، الأنات تتصاعد، الآلام تدب في أوصالهم كأرض عطشى تريد الارتواء.

حينما بدأت الأمطار في الهطول على شكل خيوط رقيقة تصل السماء بالأرض، كانوا قد حصلوا على المخدر وأوقفوا العربة على جانبي الطريق، جلس عماد يمد ذراعيه غارزًا طرف الإبرة بأوردته ليعبر المخدر من خلالها لجسده، أحس بارتخاء أوصاله وهدوء لم يلبث تبدده في غضون لحظات، فتحشرجت أنفاسه وارتعش جسده وتصلب وأخرج ما بجوفه وأومأ برأسه على المقعد.

لم يلتفت له أحمد الذي يجاوره، أو كريم الجالس في المقعد الخلفي، وظل هكذا حتى أخذوا جرعتهم وهدأت ثورتهم وبدآ بإيقاظه، فلم ينبس أو يتحرك فتحسسا نبضات قلبه فوجداه قد فارق الحياة، الرياح والأمطار لم تزل تعزف جام غضبها. النظرات تتلاقى عبر المرآة الموجودة في منتصف العربة، تُلقي بوابل من الأسئلة ليس لها جواب وهم يتابعان ارتشاف زجاجات الخمر التي بحوزتهما، بعد مضي عدة ساعات بعدما أفرغت السماء ما بثناياها وهدأت تحركا بالعربة وألقا بجسده على قارعة الطريق عائدان إلى منازلهما.

في غرفة مكتبة محمود "مدير الشركة" جلس يطالع عدة أوراق تضم فواتير شراء سيارة جديدة تقدر قيمتها بعدة ملايين من الجنيهات، وأخرى لسحوبات نقدية من البنك باسم الشركة لا يعلم مصيرها، غادر متوجهًا إلى أحمد مستفسرًا عن مصير تلك النقود وإبلاغه بضرر ذلك على وضع الشركة المالي قائلًا:

. السحب النقدي المستمر غير مطمئن ويهدد الشركة فأرجو منك التوقف حتى لا نتعثر ماليًا.

. ليس من شأنك هذه أموالي أنفقها كما أشاء.

نظر له وقد أفجعه حديثه!

. أعلم أنها أموالك لكن السوق اليوم في حالة ركود اقتصادي وأسهم الشركة باتت في الانخفاض، ولدينا التزامات نقدية مع العملاء والبنوك.

. أنا هنا رئيس المجموعة ولا أحد يحاسبني.

وألقى الأوراق في وجهه.

تضايق محمود لفعل أحمد وقرر عدم الصمت أكثر من ذلك.

في غرفة الجلوس أتى محمود لزيارة منير الذي استقبله بالترحاب:

. أعتب عليك تأخرك عن زيارتي.

. أعلم أنني مقصر معك لكنك تعلم أعباء العمل.

. أخبرني يا محمود ماذا يحدث في غيابي.

. آسف أن أخبرك بهذا لكن الأمانة التي وضعتها بعنقي تتطلب ألا أخفي عليك، إن الوضع الاقتصادي غير مبشر في تلك المرحلة، وأسهم الشركة بالبورصة في انخفاض مستمر، هذا بجانب إنفاق أحمد بالملايين ونحن في أَمَس الاحتياج لسيولة مالية لسداد مستحقات البنوك من المديونات، لقد نصحته كثيرًا لكنه لا يسمع سوى رأيه فقط.

. وأنا أيضًا تعبت من سوء تصرفاته، لكنني عاجز على ذلك الكرسي.

. لا تضايق نفسك لم أشأ إخبارك لكن عجزت عن التصرف معه بحكم حدود وظيفتي.

. أشكرك وسأفعل ما بيدي لإنقاذ الشركة واعلمني دائمًا بكل جديد.

مع دقات الساعة السادسة صباحًا أفاق منير من غفوته جالسًا على الكرسي منتظرًا عودة أحمد من إحدى سهراته، عند رؤيته لأبيه تساءل بضيق:

. ما الذي يوقظك إلى الآن؟

. أريد الحديث معك قليلًا.

. أريد النوم الآن.

. لا انتظر، لم أنهِ كلامي بعد.

بضيق وتأفف من الحديث معه:

. تفضل قل ما تريد.

. أخبرني عن العمل بالشركة؟

. بخير وحققنا زيادة في الأرباح.

. والنقود التي تسحبها فيم تنفقها؟

. قل ذلك، لقد اتصل بك محمود سأطرده من الشركة.

. ليس لك شأن به أجبني أين تنفقها؟

. هذا مالي أنفقه كما أشاء.

. أنا لم أمت لم أزل على قيد الحياة لتفعل ما يحلو لك، لقد اجتهدت لأنهض بتلك الشركة وأوسع نشاطها لتصبح من أكبر شركات الاستيراد والتصدير، وستأتي أنت لتمحو ذلك بسبب طيشك وسوء تصرفك.

. أنت لا تحبني مهما فعلت لأرضيك فابنتيك الأحب إلى قلبك.

. لأنك فاشل مستهتر لا تقدر المسئولية التي وضعتها بيدك، ستضيع ما بنيته طيلة سنوات عمري.

استيقظ الجميع على صوت الأب وجاءوا لتهدئته، وربتت أمه على كتفيه وأخذته بعيدًا قائلة:

. ألم أقل لك أن تتجنب الحديث معه.

حاولت لكنه استفزني وقال لي بما تصرف نقودك.

. اذهب إلى غرفتك الآن وسأعود إليك بعد قليل.

ذهبت له ثائرة مستاءة من حديثه قائلة:

. اهدأ يا منير ما بك اتركه ينفق فهو شاب وفي النهاية هذا المال له.

استدار لها شذرًا قائلًا:

. أنتِ سبب فساده.

تدخلت ندى ومها لإبعاد والدتهما من أمامه مهدئة من روع أبيها لحرصهما عليه من الانفعال، لحظات سريعة مضت وإذا بدقات قلبه تتسارع وشعر بوخزات بصدره تفتك به، وعلت أنَّاته من شدة الألم، علا صراخ البنتين من حوله فهرولت الأم للنزول وتبعها أحمد واستدعيا له الطبيب ليجده قد فارق الحياة.

ظلت أختاه تلقيان اللوم عليه:

. لقد قتلته لن نسامحك حرمتنا من روحنا التي نحيا بها.

جَثا على ركبتيه مُلبد المشاعر فاقد النطق كأنه اعتاد رؤية الموتى أمامه.

بعد الانتهاء من مراسم الدفن والعزاء بدا البيت مقبرة بدون والدهم، كان كل فرد وحيدًا في غرفته، نادرًا ما يجتمعون على المائدة، وعند حدوث ذلك لا يطيقون النظر إلى بعضهم، كأن موته شيد جدرانًا في وجدانهم.

انخفضت أسهم الشركة بالبورصة، وبيعت بعض ممتلكاتهم لسداد الديون المستحقة للبنوك، ولم يتبقَ لهم سوى الفيلا خالية من الخدم لقلة المال لدفع رواتبهم.

أغلقت الأبواب أسدلت الستائر حاجبة الضوء إلا من بصيص خافت تسلل عبر زجاج النافذة المكسورة على السرير، حيث جلست الأم زافرة أنفاسها مع عبراتها التي بللت وجهها، تلوذ بالصمت في وحدتها لتلوح صور الماضي تطفو حولها وتتهادى أمام ناظريها، عندما اقتحم أحمد غرفتها يتطاير الغضب من بين عينيه التي ضاقت حدقاتهما بوجه شاحب من كثرة تعاطي المخدر، يمد يديه الممتلئتين بآثار الإبر فاتحًا الأدراج عابثًا في محتوياتها؛ بحثًا عن النقود، أو ما يمكن بيعه، يحك جلده الجاف بأظافر يده المرتعشة، أمسكها من ملابسها معنفًا لها لإحضار المال، فتلعثم لسانها من هول فعله قائلة:

. ليس معي نقود.. ولو معي لن أعطيها لك.

. ستعطيها لي.

دب الرعب والصراخ في المنزل، اقتربت منه أختاه لتنحيه بعيدًا عن أمهما فلم تقدرا، لمح في رقبتها سلسلة كانت آخر ما تبقى لها من مصاغها، فجذبها بشدة جرحت لها رقبتها وألقاها على الأرض وفر من البيت.

صرخت الأم وانسابت عباراتها كما لم تذرفها على زوجها حين وافته المنية، جلست ابنتاها بجوارها تضمدان جرحها حين صرخت من شدة الألم الذي دب بذراعها، فذهبا بها إلى الطبيب الذي قام بتجبيره لوجود كسر به.

***

في غرفة سعاد جلست مسندة الرأس على سريرها تضم ذراعيها لصدرها بحامل معلق طرفة برقبتها، عباراتها تروي وجهها حينما طرقت الباب مها وندى للدخول فتبرمتا لرؤيتها هكذا فقالت مها:

. كفى نحيبًا نحن بجوارك.

. حزني على أخيكما يُدميني.

فتدخلت ندى في الحديث قائلة:

. نعلم ونحن أيضًا لكن لا بد أن يتوقف بإرادته.

جالت من سعاد التفائه إلى ابنتيها متحدثة بنبرة آمرة لهما:

. وافق أم رفض لا بد من علاجه.

. نعم ولكن من أين المال؟

. سنبيع تلك الفيلا وننتقل لشقتنا القديمة.

. سنفعل لكِ ما تريدين لكن اهدئي، وربتا على كتفيها، فهدأت لعدم معارضة ابنتيها لها.

اجتمعوا في غرفة المعيشة، الصمت يُخيم على وجوههم العابسة، فلاحظ أحمد هذا الوجوم فبادرهم بهتكة متسائلًا:

. ما بكم كأن أحدًا توفى.

. نعم لقد صدق قولك.

. من يا أمي؟

. أنت يا بني لقد أصبحت في عداد الأموات.

بَدَرَ منه ابتسامة ذابلة ولم ينبس بكلمة فأكملت حديثها:

. أريدك بأفضل صحة، لذا لا بد من علاجك، لن تقضي عمرك هكذا.

. أنا بخير يا أمي لا تشغلي بالك.

بصراخ يمتزج بمرارة حسرتها على وليدها الوحيد.

. ألا ترى كيف يبدو وجهك بالمرآة! يملأه شيخوخة رجل بلغ من العمر أرذله، لا بد أن تتوقف عن تعاطي المخدرات.

. أنا أريد الامتناع وحاولت لكن لا أقدر.

. لكن أنا أقدر ولن أقف مكتوفة الأيدي تموت أمام ناظري.

ظلت عيناها تغوصان في عينيها حينما دق جرس الباب ففتحت ندى تستقبل الزائرين.

بتعجب رنا إليهم أحمد متسائلًا:

. من هؤلاء؟

بأسى عميق ملأها وعبرات لم تغادر أعتاب رموشها في محاولة للثبات قالت:

. من المستشفى اذهب معهم من أجلي.

. لا لن أبرح بيتي.

هرول محاولًا الهروب فأمسكه الرجال وقيدوا يديه من الخلف، كانت قدماه تتشبث بالأرض وجسده يتلوى محاولًا الإفلات من قبضتهم، وصوت صراخه مناديًا على أمه وأختيه يبث حزنهن لكن عزائهن أنه سيتعافى وتعود له روحه المفقودة، ظللن يطالعن حتى استقل عربة الإسعاف عنوة كسجين ذاهب لتنفيذ حكم الإعدام الصادر ضده، ظللن يتابعن العربة حتى ابتعدت عن الأنظار وانفطر ثلاثتهن في بكاء مرير.

على أعتاب الفيلا وقفت متشحة بالسواد تطالعها من الخارج بعدما أوصدت أبوابها، وأعطت المفتاح إلى المشترى الجديد. حملت الحقائب في سيارة نقل لتوصيلها إلى البيت الذي شهد زواجها من منير ورفض بيعه برغم إلحاحها في طلب ذلك.

حين عَاوَدْنَ إلى المنزل بعد عدة سنوات بدا لهن أن علامات الحزن واليأس ظهرت على قطع الأثاث وتركت بصماتها على الجدران والنوافذ، فكان للحزن رائحة هي تلك الرائحة الندية للغرف المغلقة التي لم تصلها أشعة الشمس منذ أمد، وللحزن لون هو لون الطبقة الرمادي التي غطت كل ركن وكل مساحة من البيت، كان كل شيء كما هو ينتظر عودتهن، امتدت أيديهن وفتحت النوافذ لتهوية الغرف، ومسحن الغبار المتراكم وأَعَدْنَ الحياة إلى كل قطعة من ماضيها.

كانت الأختان سعيدتين بالعودة إلى مكان طفولتهما الذي شهد ذكرياتهما التي جمعتهما بأبيهما، أما سعاد فكانت تشعر بحزن لذلك لكن لا سبيل لديها.

حاولت مها وندى إثنائها عن زيارته لتردي حالته الصحية، إلا أنها لم ترضخ لهما، فقد كانا كعاشقين يتشحان بغلالة الحب. وقفت أمام المرآة ترتدي ملابسها وتطالع وجهها تتحسس أخاديد الدهر عليه كم فقدت الكثير من وزنها وخبا بهائها، لكن اللون الأسود أضفى عليها مسحة من الجمال والوقار الذي لم ينزعه تقدم عمرها.

سارت بصحبة الطبيب عبر بهو المستشفى، قرع نعليها يدوي صداه على الأرض الرخامية الملساء، تسابق خطواتها دقات قلبها المتلهفة له، التقت عيناها بفتى يسير بجوار الحائط، مطأطأ الرأس كطفل بأول خطاه يخشى التعثر والسقوط فشعرت بغصة تجتاحها وأشاحت بوجهها عنه، كم تُمقت الذهاب إلى المستشفى، لكن شوقها للقاء يذلل كل الصعاب، ظلت عيناها تتعجل ملاحقة أرقام الغرف الموضوعة على الأبواب، حتى توقفت أمام غرفته.

اقتربت تطالعه، كان جسده يتلوى بين أرجاء الحجرة كباحث عن قطرة ماء في صحراء تعامدت فيها الشمس على جسده تحرقه، شاحب الوجه، هذيل البنية، متخبطًا بين الجدران كطائر حبيس أراد العثور على ملاذه للفرار، بات يهتز كأن نبضات كهربائية تجتاحه نافضًا كل جزء به، ليفرغ ما بجوفه ويتصبب عرقًا غزيرًا، ثم لا يلبث أن يضع يده على رأسه صارخًا من شدة الألم الذي كاد يفتك به حتى دخل الممرض وأعطاه الدواء لتهدئته.

نظرت للطبيب وقد أثلج صدرها ومزق نياط قلبها، ولم تستطع أن تمنع عبراتها من التسرب لرؤيته وسماع الأنين الذي يطلقه ويملأ أذنيها قائلة:

. إنه يتألم بشدة!

. هذا أمر طبيعي فلم يزل في بداية التعافي.

. ومتى سيتعافى فلا أتحمل رؤيته هكذا.

. قريبًا سيصبح أفضل خاصة بعد نزع السموم المعبأة بين ثنايا جسده، بعدها سيخضع لتأهيل نفسي يساعده على تجاوز محنته لم يزل الطريق طويلًا.

. أريد الجلوس معه.

. ممنوع الآن، لقد أعطوه مهدئًا لينام.

عادت سعاد إلى البيت يستقبلها ابنتيها في قلق بالغ لتأخرها في الحضور:

. لما تأخرتِ ولم تجيبي على هاتفك؟

لم ترد عليهما ودلفت إلى غرفتها وأغلقت الباب ورائها.

وقفت مها وندى يتطلعان لبعضهما حتى قالت إحداهن للأخرى أتركيها حتى تهدأ.

الأيام تمر ببطء كأنها لا تريد أن تنجلي تقضيها وحيدة بغرفتها صامتة، لم تكن صورته تبرح خاطرها منتظرة لحظة عودته عبثًا باءت محاولات ابنتيها لإخراجها من ذلك العبوس والتجهم بالفشل، فقد سلبت سعادتها وروحها برحيله، بعد مرور عدة أشهر لم تتخلف فيه يومًا عن الاتصال والاطمئنان ورؤيته مرات قلائل، حتى علا رنين الهاتف في المنزل فكان الطبيب يهنئهم بتماثله للشفاء وإمكانية خروجه من المستشفى والعودة إلى البيت.

تراقصت أجنحة السعادة بداخلهن سبقت ابنتيها إلى غرفتها ونزعت عنها السواد من الثياب، واختارت أبهى فساتينها الملونة لارتدائها، ووضعت القليل من المساحيق على وجهها، ظلت ابنتاها صامتتين لم ينبسا بكلمة فقط الضحكات المخبأة. اِسْتَقَلْنَ سيارة أجرة، وعند الوصول اصطحبهن الطبيب لرؤيته جالسًا بين أصدقائه، ظللن يطالعنه من بعيد فرحين برؤيته في أبهى صحة متحدثًا بنبرة صوت مليئة بالثبات والهدوء ليتابع سرد تجربته حتى أنهى حديثه فتلاقت عينيه بعائلته قائلًا:

. في رحلتي فقدت أحبتي، وأتعبت قلوبًا من سوء أفعالي، وأذيت المقربين مني، فأرجو أن تسامحوني لأطوي صفحة الماضي وأحيا من جديد بعدما أزيلت ذرات الغبار العالقة بداخلي وبعد وصولي إلى بر الأمان، وإدراكي قيمة كوني إنسان أستحق الحياة.

كُنَّ يتابعن حديثه وأعينهن يجتمع بها آلام الماضي، وفرحة الحاضر بأخٍ بددته العثرات لتلبسه حلة جديدة زادت من حسنه وبهائه، بانتهائه قام وهرول إليهن بشوق بالغ، ارتمى بين أحضانهن في عناق

حار، وامتزجت العبرات بالضحكات لفرحة عودة الروح الهائمة بعد سنوات من الضياع، نظرت ندى ومها في وجه أحمد بحيرة بالغة.

"فقد عاد والدهم إلى الحياة مرة أخرى"

الأوراق

وقفْتُ أمامَ البنايةِ أطالعُ وجهتها ذات الشرفات العالية، والتصميم المعماري القديم، ثم دلفت عبر بوابتها المفتوحة على مصراعيها لبهو زُيِّنت جوانبه بزخارف وأعمدة متسخة بغبار قرن مضى لتحيله للون الرمادي، صاعدًا الدرج ذا السلالم الرخامية المزدحم بأشخاص تنزل وتصعد عبره، لأجد بابًا ذا شراعات حديدية، مفتوحًا ومُعلَّقًا أعلاه لافتةٌ كُتِبَ عليها "مكتب التموين"، خطوْتُ عبرَ طرقةٍ لا تتعدى الأربعة أمتار على جانبيها عدة غرف مساحتها ضيقة، يجلس بها عددٌ محدودٌ من الموظفين، يلتفون حول منضدة صغيرة.

في الغرفة الأولى، وجدت ثلاثة موظفين يتناولون إفطارهم فألقيت عليهم السلام.

رد أحدهم قائلًا:

. عليكم السلام، تفضل معنا لتناول الإفطار.

. شكرتهم قائلًا:

. أريدُ معرفة بأي غرفة أقدم أوراقي لعمل بطاقة تموين؟

. لأي حي تتبع؟

. في الحي الأول.

فأشار لي بالذهاب الى إحدى الغرف.

شعرت أنى بمتاهةٍ بين الغرف المملوءة بعراقيل الأجساد البشرية، أنحِّيها جانبًا؛ للوصول إلى الغرفة المحددة التي يصطفُّ أمامَها عددٌ هائلٌ في طابورٍ طويلٍ، وقفت في نهايته حاملًا بيدي وثيقة زواجي ومفردات راتبي من المدرسة لكوني أخصائيًا اجتماعيًا لا يتجاوز راتبي ألفي جنيه ونصفٍ، ولي ثلاثة أولاد، أعمل بائعًا في أحد متاجر الهواتف المحمولة لأتدبر نفقات بيتي.

أتأمل صُوَرَنا في عقدِ زواجِنا الذي لم يتعد العشر سنوات، وأتأفَّفُ مما أصبحنا عليه الآن، فقد تساقط شعري وانزاح شعر رأسي وبرزت الدهون في بطني لتسبق خطواتي، وزوجتي ذات الأنوثة الطاغية، القد الملفوف، الخصر النحيل ضحكتها البريئة، عيناها الحانيتان، كم هويت الأمل الذي تبعثه في نفسى بحديثها عن البيت السعيد، والزوجة الودود، الأم القريبة، الحبيبة الهائمة، العشيقة الفاتنة التي سأهواها دائمًا ولا أملُّ الحياةَ بقربِها.

كلُّ ذلك تبدَّدَ ولم أعد أراها سوى امرأة شعثاء الشعر، دائمة الصِّراخ، تهوى مطاردة الأبناء داخل المنزل بالعصا من أجل أداء الواجبات المدرسية وتتحمل أعباء المنزل.

الطابور طويل، الأجساد تتلاطم، الروائح المتباينة تتسرب لأنفي، أتراخى قليلًا إلى الوراء لأجد متسعًا فيصطدم ظهري بالحائط، التقطت أذناي بعضًا من حديث إحدى السيدات بيضاء البشرة ذات عينين ملونتين جمالهما يأثر عينيكَ للتحديق بهما، وأنصت لحديثها لرفيقتها في الطابور:

. والدة زوجي تمكث معي في نفس المنزل، وتحرص على إطعامه بيدها كطفل صغيرٍ، عند إغلاق الباب تدقه بعنف حتى يفتح، أصبحت أفتقد حريتي ببيتي، كنتُ أعلمُ قبلَ زواجِنا تعلُّقَهُ الشديدَ بها لكونه نجلها الوحيد، لكن لم أعتقد أنه سيظل هكذا بعد زواجنا!

. جميعهم هكذا لستِ وحدك.

أخذت تسرد لها مواقف وطرائف والدة زوجها وتضاحكتا معًا، جالت إحداهما التفاتة إلى فتاة تجاورها في السابعة عشر من عمرها بإصبع يدها اليمنى خاتمها الذهبي، فبادرتها قائلة:

. أنتِ مخطوبة! أخبريني كيف تتعاملان معا؟

. بقدرٍ من التفاهم وعند خلافنا أُبلغ عائلته.

بادرت سيدةٌ أخرى بإبداء نصيحة لم تُطلب منها، قائلةً:

. راجعي قرارَك أنتِ الآن أفضل بكثير، أترين هكذا أصبحنا نعاني بعد الزواج!

أومأت رءوس الجميع بالموافقة على حديث هذه السيدة وظهر على الفتاة أمارات الترقب مما قيل، لكن لم تكترث فبريق الذهب في يدها يلمع ويأسر لبها عن التفكير.

علا صراخ بين السيدات لتعدي إحداهن على دور أخرى، وأنا قابعٌ في مؤخرة الطابور عابس الوجه، السُحب الدُخانيَّة البيضاء المنبعثة من لفافة تبغ بين أصابع أحد الواقفين تثير سعالي.

خرجت عن صمتي قائلًا:

. أطفئها، أنفاسُنا تختنق يكفينا الزحام.

فألقاها على الأرض وصرعها بحذائه المتهرئ الكاشف عن طرف إصبعه الكبير.

رجلٌ في الستين من عمره أحسَّ بألمٍ في ركبتيه من مدة الانتظار قائلًا:

. تعبت ترفقوا بي أريد أن أمحو اسم زوجتي المتوفاة من البطاقة، فترفق به الواقفون وأجلسوه على كرسيٍّ وأعطاه أحدهم مكانه في بداية الطابور، وقال آخر:

. دائمًا يفعل بعضُ الناس هذا ليحظى بمكان غيره فجميعنا مرضى وأوصالنا تتألم.

رنَّ هاتفي فأدخلت يدي في جيب بنطالي لآخذه وأجيب على زميلي عماد قائلًا:

. أعتذر لتأخري لانتظاري في الطابور للحصول على بطاقة التموين ولا أعلم متى سينتهي وأصل إلى شباك الموظف المسئول؟

طابورا الرجال والسيدات يتقاربان ويتداخلان، الأنفاس لاهثة متلاحقة والأيدي تحكم الغلق على الأوراق، العيون تسدل أجفانها لتنعم بلحظة تُريحُها، تتفوه الحناجر بسبابٍ للموظفين لسرعة إنهاء الإجراءات لتعطل أعمالهم.

بعد مضي الوقت وقفتُ أمام الشبَّاك الضيقِّ الذي يسمح لي برؤية الموظف، لحظة هيأت نفسي لها لألتقط أنفاسي أثناء مراجعته للأوراق ليعطيني إيصالًا برقمي، قائلًا:

. اذهب بهذا الإيصال إلى الغرفة المجاورة ليتم تسجيل بياناتك عبر الحاسوب.

خرجت من الطابور مُمسكًا بالإيصال شارد اللبِّ عند رؤية طابور آخر أمام غرفة الحاسوب.

استجمعت قوتي وأخرجت منديلًا من جيب بنطالي، أجفِّفُ قطرات العرق المتساقطة، ونظارتي التي طُمست عدساتها فحجبت الرؤية، ورفعت بنطالي ليلامس بطني المتدلية، وربطت جأشي، وسرت عبر الطرقة الضيقة أتلاطم مع الأجساد الواقفة المكتنزة وأستنفد ما تبقى من صبري.

جاء دوري أمام الموظف المسئول، فأخذ مني الإيصال وأعطاني الأوراق مرةً أخرى قائلًا:

. تفضل أوراقك قم بتصويرها وأرجعها لي مرةً أخرى.

. قلت له وأنا أزمّ على شفتيّ من الضيق:

. لماذا لم تخبرني بوجوب التصوير حتى لا أضيع وقتي ووقتك الثمين؟

نظر لي شذرًا قائلًا:

. صوَّر الورق للتسجيل قبل موعد الانصراف.

خرجت من الطابور مُفسحًا الطريق لغيري لأُهرول لمكتب التصوير الكائن في نفس البناية، ثم عدت بعد فترة وجيزة لاهثًا ليعلو صوتي بين الواقفين لأنحِّيَهم وأعطيه الأوراق لإدخال البيانات عبر الحاسوب، وبعد انتظار دام نصف الساعة بسبب تعطل الشبكة نادى اسمي وأعطاني ورقةً أخرى قائلًا:

. بتلك الورقة استعلم كل شهر عن بطاقة التموين.

. كل شهر.

. نعم، وبعد صدورها سأخبرك كيف تستخدمها لصرف التموين؟

غادرت الشباك أمسك بالورقة أطالعها وأُخرج محفظتي أخفيها بين ثناياها، سائرًا في الردهة الضيقة أتصارع مع الأجساد عابرًا الباب ذا الشراعات الحديدية المفتوح على مصراعيه، أجفِّفُ عرقي المتساقط على جبهتي أثناء نزولي عبر الدَّرَج، بطيء الخطوات مترنح الجسد.

وقفت على الرصيف أنتظر وسيلة مواصلات تقلني لعملي بمتجر الهواتف المحمولة، منهك الجسد خائر القوى فشعرت بيد تخبط على كتفي وصوت أجش ينساب عبر مسامعي فالتفت له قائلًا:

. ماذا تريد؟

. لماذا لا يتحرك الواقفون في الطابور؟ فمنذ أكثر من نصف ساعة لم يفارقْنا سوى شخصين.

. فمراجعة الأوراق تتطلب وقتًا ولا يوجد بالغرفة سوى اثنين من الموظفين، فتحلى بالصبر دومًا فأمامنا وقت طويل.

ولم يزل الطابور طويلًا، والأوراق مطوية بيدي، منتظرًا لحظة الوقوف أمام الشباك ورؤية الموظف المسئول لأُعْطِيَه الأوراقَ لاعنًا اليومَ الذي قررتُ فيه استخراج بطاقة تموين.

الرقصة الأخيرة

في حجرة بالمستشفى العام رقدت سمر على أحد الأسرة، تجاورها عنايات جارتها التي اعتادت رعايتها، مكتنزة القوام يهتز جسدها، وتتنافر أثداؤها عند السير حتى يخيل لمن يراها أن زلزالًا يحدث تحت أقدامها.

عندما أتت (سوزان) لزيارتها طالعتها بحسرة، تزم شفتيها لرؤيتها مسجاة على الفراش، هيكل عظمى مغطى ببعض من اللحم، شاحبة الوجه، أحاط السواد بعينيها الزرقاوين، فخبا سحرهما.

المحاليل معلقة في ذراعيها تضخ (الكيماوي) عبر أوردتها الضعيفة الزرقاء المتهرئة بداخل جسدها، برؤيتها ابتسمت وأومأت لها بالجلوس على الكرسي الموضوع بجوار السرير.

بنبرات حزن وأسى قالت سوزان:

. شفاك الله وعافاك يا سمراء الليل

أسدلت جفنيها برهة وارتسم على ثغرها ابتسامة بلهاء قائلة:

كان زمان يا سوزان أنا الآن أنتظر الرحيل.

. لا تقولي هذا، ستعودين أفضل من قبل.

. شكرا لك لا أعرف كيف أوفى حق زيارتك الدائمة لى.

. لقد سبقتينى بأفضالك منذ عرفتك، في تربية ولدي الوحيد بعد وفاة والده.

. أنت مخلصة وتستحقين الكثير، أتعلمين أنك الوحيدة التي أفلتت من بطشي؟ فكم هويت استقطاب الفتيات وتقديمهن لمن يدفع الثمن، لم أكن أرحم توسلاتهن ولا أناتهن.

لكن بكاء ولدك أنقذك، فحينها تذكرت عبرات أمي وتقبيلها ليد والدي للامتناع عن ضربي المبرح

سعلت بشدة حتى كاد صدرها يتمزق وكأن نصل سكين انغرز فيه، ثم أكملت حديثها :

.كثيرا ما أشعر بالخزى و الندم على أفعالي وفراري من العزبة.

. لا تجهدي نفسك بالحديث، دعينا في الحاضر.

نفد المحلول، فتدخلت الممرضة لتركيب عبوة أخرى عندما وجهت سمر عيونها عبر النافذة تنظر للا شيء.

فمنذ عشرين عامًا فرت من منزل أبيها الكائن في إحدى العزب التابعة لإحدى محافظات الوجه البحري وجاءت إلى القاهرة، فتاة قروية ساذجة فائرة الجسد ذات عيون ملونة، وطابع حسن، تزين ذقنها، وحيدة لثلاثة أشقاء ذكور أكبر وأصغر منها.

يجني الأب مالهم الزهيد من عملهم في الحقول، وينفقه على الجلوس في المقاهي، وتدخين النارجيلة، ولعب القمار مع أصدقاء السوء.

فبعد رفضها الذهاب للعمل بأحد المنازل بسبب مرضها قام بضربها حتى أراق دماءها فخضب ملابسها الرثة، وبمحاولة أمها للدفاع عنها كان لها نصيب من الأذى اللفظي، والبدني، وتركهما أجسادًا ونفوسًا ممزقة ملقاة على أرض البيت الترابية والمكون من حجرة واحدة، وضع بأحد أركانها موقد غاز ذو شعلة واحدة لإعداد الطعام، الذى يجود به أهل الكرم في الأعياد و المناسبات، يجاوره مرحاض أرضي تنبعث روائحه لتملأ المكان.

وفى الليل تفترش الأجساد المنهكة من العمل فوق الحصير يلتحفون بأغطية ممزقة ويغطون في سبات عميق، عندما أرخى الليل سدوله على القرية أفلتت جسدها من بين أحضان أمها طابعة قبلة على وجنتيها، ومضت بخطوات دؤوبة على أطراف أصابعها، وفتحت الباب وأطلقت ساقيها للرياح، شعرت بالخوف من الظلام الدامس لكن الدماء السائلة منها والندبات التي ملأت جسدها أشد وطأة، ظلت تهرول حتى شعرت بالإعياء وابتعدت عن العزبة فاتخذت خلف حائط أحد المنازل ساترًا لها عن أعين الجميع.

في الصباح خرجت العذراء من خدرها فنزعت السماء عنها وشاحها الأسود، أفاقت من سباتها تسرع الخطوات حتى رأت القطار يبطئ من سرعته بمروره على الطريق الزراعي فلحقت به، لم يكن به أحد

ظلت تنتقل بين المقاعد تأخذها نشوة الحرية مبعثرة الشعر، ممزقة الثياب، مخضبة بالدماء، رويدا تهافت الركاب فازدحم الناس في القطار ينظرون إليها بعطف على مظهرها الرث، متسائلين من فعل بها ذلك فوجدت متعة لسرد ما حدث وسماع كلمات السب والقذف في أبيها، أحدهم سيدة مسنة سألتها:

. أين ستذهبين يا ابنتي؟

. لا أعلم!

. لو كان لى بيت لأتيت بك معي.

. شكرًا لك سأتدبر أموري، ولكن إلى أين سيذهب القطار؟

. إلى القاهرة .

فرحت لذلك فكثيرًا ما سمعت من طالب يدرس بإحدى جامعات القاهرة، مختلف القصص عن تلك المدينة المأهولة بالسكان من مختلف البلاد.

عند الوصول إلى المحطة نزلت من القطار تستقبل سيلًا جارفًا من الأجساد البشرية، لا تراه إلا بالتجمع وقت المآتم؛ لتوديع أحد المتوفين الأغنياء ملاك البيوت والأفدنة، بل إن أعداد هؤلاء البشر يفوق تعداد سكان العذبة بأكملها.

بدت منبهرة بكل ما تراه من مبانٍ عالية ووجوه زينت بالمساحيق، فساتين، بناطيل، قمصان يرتديها الرجال والنساء، تنظر كالبلهاء حتى اصطدمت بأحد الأشخاص ووقعت على الأرض فنهرها قائلًا: . انظري أمامك؟

كانت كعصفور طليق ظفر بحريته بعد خروجه من محبسه للحظة شعرت بالأمان، فهنا لن يستطيع والدها اللحاق بها ثم تذكرت والدتها وتساءلت ترى ما حالها بعد فراقي؟

في العزبة استيقظت الأم للبحث عنها فلم تجدها، ظلت هائمة تلطم خديها، وتشق ملابسها وتسأل عنها القادم والذاهب بلا فائدة، فعادت أدراجها تجلس أمام عتبة البيت تنتظر حضورها ودموعها لا تجف حُزنًا عليها، وقد ذهب عنها عقلها ألمًا على فراقها تحدثها كأنها أمامها، أما والدها وإخوتها لم يكترثوا لرحيلها اعتقادًا بهروبها مع أحد ما.

جلست على أحد الأرصفة في الشارع حائرة، الجوع يعتصر أمعاءها، مظهرها الرث جعل أصحاب القلوب الرحيمة يعطونها بعضًا من المال، فجمعته وأعطته إلى بائع أحد المحال لشراء طعام تسد به رمقها.

عندما أتى الليل افترشت الرصيف ونامت لتستيقظ على صوت رجل يوقظها فظنته والدها جاء ليعاقبها ويعود بها، فأخذت تصرخ وولت أدبارها من أمامه إلى أن ساقتها أقدارها إلى إحدى الحدائق العامة مستريحة تلتقط أنفاسها اللاهثة، مدت ذراعها وسادة تضع عليها رأسها، وصدرت عنها تنهيدة، تحمل معها عبرات مبللة وجنتيها في نحيب صامت وحنين لحضن أمها.

مضت الأيام لا تحمل سوى مزيد من الخوف والقلق وكأن الليل لا ينقشع ظلامه فالحياة في الشارع ليست يسيرة كما ظنت.

في ليالي الشتاء الباردة السماء تهطل أمطارها والطرقات غمرتها المياه، رقدت على الأرض تحتضن كلتا يديها لتهدئ رعشات جسدها وسعالها المتكرر، زائغة العينين للبحث عن مكان للاحتماء به.

كان باب أحد الأبنية مفتوحًا فاتجهت صوبه، في أثناء عودة رؤوف أحد سكان العمارة رآها ، نُزعت عنها مياه الأمطار تراب الطريق فبللت شعرها وألصقت الملابس بجسدها وألبستها ثوبًا من الجمال فبرزت مفاتنها فسألها:

من أنت؟

. أنا سمر

. ماذا تفعلين هنا؟

تسعل بشدة ثم تقول: جئت لأحتمي من المطر سأغادر الآن.

. انتظري قليلًا أين أهلك؟

. ليس لي أهل هنا؟

استطاع أن يميز من لكنتها الريفية أنها ليست من سكان القاهرة، روت له حكايتها فأظهر لها مدى تأثره قائلًا:

. تألمت كثيرًا اعتبريني من اليوم والدك.

. ألك بنات في مثل عمري؟

. لا لست متزوجًا لكنك من اليوم ابنتي.

ارتاحت نفسها واطمأنت لهيأته.

بدا لها غير هؤلاء الصبيان الصعاليك الذين اعتادوا مضايقتها، أخذها إلى شقته، ثم استأذنها للخروج؛ لإحضار الدواء لها، مغلقًا الباب لخوفه أن تتركه وتقع في أيد غيره، لم تكن تصدق ما تراه عيناها، من الحجرات الواسعة المزينة بالأثاث الفخم والمقاعد الوثيرة، غمرتها السعادة فأخيرًا تبسمت لها الدنيا وفتحت لها ذراعيها.

عاد بعد عدة ساعات وقد أحضر لها الدواء وأغدق عليها بالعطايا من الملابس والطعام، علمها كيف تأكل، تمشي، تلبس، كل ما تهفو له نفسها يتحقق في الحال، تفجرت أنوثتها، وامتلأ جسدها، أحست معه بالأمان، بدا لها كل دنياها، وتأكدت مشاعرها تجاهه فعشقته بجنون، ورسمت أحلامها معه، بدا المنزل لها جنة، تعد الدقائق والساعات انتظارًا لعودته وتمنت أن تراها أمها منعمة في هذا الهناء.

فتح رؤوف باب المنزل، لم يجدها أمامه، نادى عليها قائلًا:

أين أنت يا سمر؟

. أنا قادمة.

جاءت تهرول لتتعلق في رقبته، فطبع قبلة على وجنتيها قائلًا:

. ارتدي أبهى الثياب. سنذهب إلى مكان آخر.

. إلى أين؟

. مفاجأة، ستعرفينها في الوقت المحدد!

لبست أبهى ما لديها وتزينت واستقلا السيارة ليمضي.

بعد مرور نصف ساعة أوقف السيارة.. أمام أحد (القصور) قائلًا:

. هيا انزلي.

. إلى أين؟

. ستعرفين فهنا السعادة والمال وكل ما تحلمين به بين يديك.

شعرت بقبضة اعتصرت قلبها وهي تسير بجواره تعبر البوابات العالية عبر طريق ممهد بالرخام يحمل على جانبيه حديقة مملوءة بالأشجار والورود.

وصل الاثنان أمام باب القصر الداخلي ليفتح لهما الحراس؛ ليكون في استقبالهما رجل ضخم الجسد عريض المنكبين يجلس واضعًا ساقًا على الأخرى ممسكًا بلفافة تبغ يدخنها.

أقبل عليه يصافحه قائلًا:

– تفضل سمر ملكك مثلما طلبت، وأمسك بيدها يديرها له ويستعرض قدها الملفوف أمامه، أثنى عليه شاكرًا، ثم أشار إلى أحد الرجال الواقفين بجواره فأحضر له حقيبة مليئة بالنقود أعطاها له.

ارتفعت دقات قلبها عند رؤيته يأخذ النقود ويغادر، أمسكت بمعصمه قائلة:

. أرجوك خذني معك أنا خائفة!

فلم يكترث وهم بالانصراف، فمالت تقبل يديه وارتمت تحت قدميه تتشبث به، فأمسكها من شعرها وانهال عليها صفعًا قائلًا:

. نفذي كل ما يقوله لك هذا الرجل، أكنت تعتقدين أني أنفق عليك كل هذا المال من أجل عيونك؟ لقد فعلت ذلك من أجل تجهيزك لإسعاده، وألقاها بعيدًا وغادر.

أرتمت على الأرض تبكي، الآن علمت أنه مثل أبيها، فبعد أن توسمت فيه ملاذها، وأحبته بكل كيانها، وأئتمنته على شرفها وروحها، صرعها غدرًا.

بدت ك «شاةٍ» يطعمونها طيلة الوقت استعدادًا لذبحها، فأخذوها إلى مذبحها جسدًا بلا روح، كان جسدها يرتعش وعبراتها لا تتوقف عن الانهمار.

***

انتفضت سمر علي سريرها تنزع المحلول من يدها صارخة بألم، فأمسكت سوزان بيدها رابطة على كتفها قائلة:

. أهدئي حبيبتي ، كل شيء سيكون بخير.

خرجت مسرعة لمناداة الممرضة بينما عنايات تحاول إغلاق فتحة المحلول الذى تنسكب قطراته على جسدها وتنحيه جانبا، كانت شفتاها ترتعشان وبعض اللعاب يسيل من جانب فمها، تأتى الممرضة وتقوم بتهدئتها ومسح اللعاب وتغطيتها، و قد أعادت وضع المحاليل بيدها مرة أخرى مسدلة الأهداب لتنعم بسبات عميق.

تبدلت سمر منذ هذا اليوم، انتزعت منها الرحمة، عرفت طريق البغاء، واجتذاب الفتيات، وإعطائهن لمن يدفع، أجادت الرقص في الملاهي الليلية، وجمع النقود لضمان حياة رغدة بعيدة عن الفقر، والنوم في قارعة الطريق.

ذاعت شهرتها وتعددت علاقاتها الاجتماعية بشخصيات مهمة ف (سمراء الليل) كما أطلق عليها محبوها يكفى أن تأمر فتطاع، أصبح رؤوف ذليلًا تحت أقدامها يحاول كسب ودها، لكن لم تنس يومًا ما فعله بها فتتعمد إهانته أمام الجميع، وتبصق في وجهه فيبتسم ويشكرها.

على المسرح ترقص؛ يتمايل جسدها، تضرب بقدميها الأرض، وتلوِّح بذراعيها في الهواء، على إيقاع نغمات الموسيقى الصاخبة؛ سابحة في عالم حالم هادئ؛ تنزع فيه ثوب الرذيلة، وترتدي ثوب الطهر والعفاف، تعود الفتاة البريئة الساذجة. تنهي الرقصة، يعلو التصفيق والهتاف.

تجلس على إحدى المناضد مع أحد رجال الأعمال ويدعى كمال في العقد السادس من عمره مكتنز البنية، قصير القامة، ذو شارب ولحية ثقيلة يذوب عشقًا فيها، يعطيها ما تريد من الذهب الثمين والأموال، ترتشف الخمر وتعبئ أنفاسها بالتبغ لتخرجه من فمها حاملًا سُحبًا بيضاء تداعبها بزفر الهواء فيها لتطيرها، لاحظ شرودها فسألها:

. ما الذى يجول بخاطرك وأخذك بعيدًا عنى يا سمراء قلبي؟

. تذكرت أمي، اليد الوحيدة التي بعثت الدفء والسكينة والأمان في نفسي، والحب الذي انتزع من قلبي يوم فارقتها، الملجأ الذي كنت أحتمي به، أنا اليوم أشعر ببرد شديد ينساب في أوصالي، أشتاق لها، أراها تبكي دومًا في منامي، أعلم بعد طيلة هذه السنوات أنها مازالت تشتاق إلي، تتمنى لقائي، لقد كنت روحها، تهدج صوتها في بكاء مرير انسابت معه عبراتها.

. أرجوك لا تبكي، فدموعك تدمي قلبي، فلنذهب لها الآن.

. صرخت به قائلة:

. لا لم أعد ابنتها البريئة، لا تتحمل عيناي النظر إلى وجهها وأنا مدنسة بالخطايا.

. هدئي من روعك يا محبوبتي. وأخذ يدها بين راحتيه يقبلها، ويمسح عنها عبراتها التي اختلطت بالكحل الأسود، وضمها لصدره، وقاما من مجلسيهما. غادرا الملهى يستقلان العربة إلى البيت، تلقي بجسدها بين أحضانه، تمزج الدموع بالخمر والجنس حتى الصباح.

في شقة بمصر الجديدة تجلس مجموعة من الفتيات والرجال، تعبئ المكان رائحة دخان ينبعث من تدخين لففات التبغ، أحد الرجال يحتضن امرأة تنام على كتفه يداعبها، ترقص إحدى الفتيات على أنغام الموسيقى الصاخبة تتعالى الضحكات مع قرع كئوس الخمر.

في غرفة أضيئت أنوارها بلمبات صغيرة تتلألأ بألوان متعددة رقدت على السرير تمارس الهوى في أحضان أحد الزائرين، بعدما أنهت عملها وأخذت مالها غادرت الغرفة، ترقص وتتمايل مع الفتيات.

دق جرس الباب، تسرع إحدى الفتيات للفتح لتجد أمامها ضابطًا وعدة عساكر يقتحمون المنزل ويلقون القبض عليهم .

في حجرة الحجز يعلو صوتها متأففة:

هذا بلاغ كيدي، كنا نرقص ونضحك، لم يحدث ما يتوجب القبض علينا.

تضايق الضابط من ثرثرتها، فنهرها:

. اصمتي لا أريد أن أسمع صوتك.

وانهال على أسماعها بوابل من الشتائم البذيئة.

بعد عدة ساعات تململت من الوقوف وألقت بجسدها على الأرض تمد ذراعها وتضع عليه رأسها، فرقدتها في الحجز أعادت لها ذكريات الماضي بأوجاعه عندما كان مرقدها قارعة الطريق، والأرصفة، والحدائق العامة.

لم تُسدل الأجفان حتى الصباح ليفتح باب الحجز ويُزج بهم في سيارة الترحيلات إلى النيابة، حيث كان بانتظارهم الأستاذ زغلول المحامي، رجل في الأربعين من عمره، أخرجهم بكفالة مالية فشكرته قائلة:

لا أدري ماذا أفعل لك نظير خدماتك لنا.

. دائما في خدمتك يا "سمراء الليل" وملكة قلبي، يكفي أن أنال رضاك.

ضحكت بدلع وتمايلت بجسدها قائلة:

. أنا دائمًا راضية عنك.

صدرت منه آهات عميقة عند النظر بعيونها قائلًا:

. يكفيني أن تتمتع عيناي برؤيتك.

. سأنتظرك في المنزل لأدفع لك أتعابك.

وغمزت له بطرف عينيها وهي تتهادى لتستقل السيارة للرحيل.

أقسمت بعد قضاء تلك الليلة أنها لن تتكرر ولن تظل فتاة هوى يزج بها لأقسام الشرطة، استطاعت بعلاقاتها الاجتماعية ببعض الشخصيات الرقص عبر القنوات الفضائية وجني أموال طائلة.

ذاعت شهرتها في مدة زمنية قصيرة، لكن برغم هذا المال، والنفوذ لم تزل تتمزق شوقًا لوالدتها كل يوم.

في إحدي الليالي رأتها في المنام تنادي عليها وتخبرها أن تعود لبيتها، استيقظت مضطربة الأنفاس محطمة الفؤاد وعاقدة العزم أن تذهب لرؤيتها، فدلفت إلى غرفة سوزان الخادمة ترفع عنها الغطاء الملتحفة به، وتختفي أسفله من شدة البرد لتوقظها من سباتها، مسدلة الجفون، تتثاءب لتنهض من مخدعها واقفة ببشرة سمراء، وشفتين غليظتين، وشعر مجعد مبعثر على كتفيها قائلة:

. أريد منك السفر معي غدًا إلى العزبة.

. أهذا قرار نهائي لا عودة فيه؟

. نعم.

ذهب عنها الكرى وظلت مستيقظة فبعد غياب دام أكثر من عشرين عامًا ستعود إلى مسقط رأسها.

ركبت القطار في عربات الدرجة المكيفة، لتنزل في إحدى المحطات القريبة، وتستقل سيارة أجرة للبيت.

طيف جامح من الذكريات يجتاحها، تركتها حافية، وجاءتها ملكة، الكل تحت أقدامها، تأمر فتطاع، عيناها تجوب الطريق متعجبة، لقد اختفت كثير من معالم البلدة، كثرت المباني العالية، المقاهي،

ردمت الترعة التي كانت تلعب بجوارها لتوسيع الطريق، تحول (أبو قردان) من البحث عن طعامه بين شقوق الأرض بعد حرثها، إلى البحث عن طعامه بين أكياس القمامة الملقاة على جانبي الطريق.

أفاقت من شرودها على صوت السائق يتساءل:

. إلى بيت من ستذهبين؟

. لبيت عم "فهيم"

. أنا أول مرة أسمع عنه، لنسأل أحد المارة.

لكن لم يستدل عليه، وباستمرار البحث تم العثور على البيت خلف أحد المنازل المرتفعة، لم تصدق عينيها وهى ترى باب البيت الخشبي ذا (الضرفتين) الذى يفتح للداخل، والشبابيك القديمة التي وضع عليها قضبان الحديد، وتعريشة القش، والخوص فوق السطح، وقد انتزع عن جدرانه بلاطها (الإسمنتي) الذى تآكل بفعل الرطوبة وأمطار الشتاء، كادت أوصالها تتجمد ولم تقدر أن تترك السيارة وأمرت خادمتها بالنزول والسؤال عن أمها.

قرعت (سوزان) الباب منادية قائلة:

. يا أم سمر.

لم يرد أحد فدفعت الباب ليفتح وأعادت النداء ليأتيها صوت هادئ.

. من ينادي، أنا هنا؟

دخلت البيت، تعبئ أنفها رائحة الرطوبة التي تملأ البيت الذي ذهب الطلاء عن كل جدرانه، وبقيت الحجارة الحمراء بارزة متآكلة كضلوع الميت العجوز، وضوء خافت ينبعث من لمبة بمنتصف السقف تضيء الغرفة؛ لتكشف عن سيدة مسنة تجلس على مرتبة وضعت على الأرض، ضعيفة البصر ترتدي جلبابًا أسود، وتلف رأسها بإشارب صغير، تعقد أطرافه في منتصف الرأس.

. أنا جئت لأطمئن على أحوالك.

. تعالي بالقرب مني لأسمعك جيدًا فمرض السكر أضعف سمعي، وبصري، لكن صوتك غريب عني.

. لقد سمعت عن مرضك وجئت لمساعدتك.

. الله ما يحرمني منك.

. أنت مقيمة بمفردك؟

. زوجي مات، وأولادي متزوجين، يأتون عندي كل صباح ومساء للاهتمام بشئوني، وكان لي ابنه فرت من ضرب أبيها منذ سنوات.

. ألا زلت تذكرينها؟

. ومن ينسى فلذة كبده؟

أعطتها بعضًا من المال، وعادت أدراجها وأخبرتها بما دار بينهما، فقررت الذهاب إليها.

تسارعت نبضاتها للقاء طال انتظاره، وأقبلت مرتمية بين أحضانها تضمها بقوة، وتمسك يدها تقبلها، ودموعها تنزل على وجنتيها، أحست الأم بفرحة غمرتها لعودة ابنتها، فأخذت تربط على كتفها وتمسح على رأسها، لحظات صمت مرت كدهر إلى أن صرخت الأم بصوت واهن مبحوح:

. اشتقت إليك ولصوت أنفاسك، كنت أعلم أني سأراك قبل أنْ أفارق الدنيا، بحثت عنك كثيرًا ولم أعثر عليك، تعذبت بغيابك، لكن كنت أعلم أنك ستعودين.

. أنا أكثر منك، كنت أموت شوقًا لك، وأراك في صحوتي ومنامي.

يعلو الصراخ والنحيب ليملأ المكان من الاشتياق، وكما يطفئ الماء النار، هدأت نار قلبها المتقدة بعودة ابنتها، استكانت رأسها على صدر أمها كطفل صغير وجد ملاذه، تطالعهما سوزان باكية من شدة التأثر.

بادرتها الأم بهتك الصمت بينهما قائلة.

. احكِ لي عن كل شيء منذ فرارك.

انتفضت رافعة رأسها كمن أفاقت من غفوة قصيرة تمنت أن يقف عندها الزمن، مطأطئة الرأس خجلة لتقص عليها أكاذيبها، فقد أخبرتها بتزوجها من رجل ثري وجدها بعد هروبها، وعاملها بلطف، لم تنجب منه أبناء، وتوفى في حادث فورثت عنه أموالًا طائلة، وطالبتها بالمجيء معها فرفضت قائلة:

. أنا أخشى عليك من بطش إخوتك فطيلة تلك السنوات يعتقدون أنك فررت مع أحد ما، عودي مثلما أتيت، أخشى عليك من أذيتهم.

. بدونك يا أمي.

. يكفي أني اطمأننت عليك.

. تعالي معي.

. لم يبق الكثير في العمر لأرتحل إلى مكان آخر وأترك بلدتي.

. أنت بمفردك، وأنا حرمت منك.

. لست وحيدة بين جيراني وأبنائي ولن أرتاح في أي مكان آخر، تعالي لزيارتي دائمًا.

مر الوقت في محاولات فاشلة لأخذها حتى يئست، وودعتها، وعادت أدراجها، أحست بعد ذهابها أنها انتزعت من كل خطاياها وعادت فتاة بكر الجسد والروح.

ظلت تزورها من حين إلى آخر وأعادت بناء المنزل وتنميقه من أجل إسعادها في الوقت الباقي من حياتها، إلى أن وافتها المنية، فانهارت واعتزلت الحياة لبعض الوقت، ثم لم تلبث أن جرفتها الدنيا لحياتها السابقة لتنسى أحزانها بالرقص على خشبة المسرح.

في يوم عيد ميلادها الخامس والأربعين وقفت ترقص كأنها شابة في العشرين، مازال يحتفظ جسدها بكامل أنوثته التي تذيب قلوب العاشقين وتغريهم، ترتدي بذلة رقص صنعتها خصيصًا احتفالًا بهذه

المناسبة، تتمايل مع إيقاعات الموسيقى الصاخبة، تهز الأثداء والأرداف، تنهال عليها النقود كأمطار تلقيها السماء فتفرقها تحت أقدامها، تدب بأقدامها الأرض حتى سقطت على المسرح بين محبيها.

تحملها عربة الإسعاف إلى أحد المستشفيات ، يقوم الطبيب بالكشف الطبي عليها وإجراء الفحوصات اللازمة، وأبى مغادرتها رغم إلحاحها إلا بعد ظهور النتائج التي أظهرت إصابتها بمرض (لوكيما في الدم)، كانت صدمة فاجعة لكل من حولها لدى معرفتهم، أما هى فتبسمت، لم تقنط أو تستاء فقد تعودت أن تتلقى الصدمات بنفس هادئة.

التف الجميع حولها، وبدأت في تلقي العلاج، لم تكن تخلو ردهات المستشفى من الورود والمعجبين من مختلف الأعمار والمتعاطفين معها كان يسعدها وجودهم، حتى خبا سحرها وبهاؤها، وتساقط شعرها، نحف جسدها، لم تعد تنبض بالإغراء والأنوثة، لم يبق منها سوى لون عينيها الزرقاوين، وآلام تعصف بأطراف جسدها لا تنتهي إلا بالمسكنات، فانصرف عنها الكثير من المعجبين إلا بعض المقربين المستفيدين من إغداقها المادي عليهم، وبعد نفاد أموالها وتدهور حالتها الصحية لم يتبق بجوارها سوى خادمتها .

بعد تراكم الديون عليها لارتفاع نفقات علاجها اضطرت لبيع شقتها الكائنة بالزمالك والتي تطل شرفتها على النيل، وانتقلت إلى شقة صغيرة بأحد الأحياء الشعبية، في بيت قديم تطل نافذته على شارع مزدحم بصخب أصوات صياح الأطفال أثناء لعب كرة القدم، وقرع بائع الأنابيب معلنًا قدومه، وسيدات تطل عبر الشرفات تتشدق بسيرة الجيران وبأحداث المسلسلات التركية.

أحست في هذا الحي براحة لم تشهدها منذ أن وطأت قدماها تلك المدينة المأهولة بالبشر، فذلك الحي يذكرها بدفء الحياة بالعذبة، فاستكانت روحها، وهدأت بعيدًا عن أرض النفاق والمصالح والمجاملات، يغمرها فيض هائل من محبة ودفء قلوب أهالي الحارة الكرام، فأطباق الطعام تأتيها كل يوم والزائرون لا ينقطعون عنها أطراف الليل والنهار، بابها مفتوح لا يغلق في وجه أحد، وعندما ينتابها الألم يهرول إليها الجيران لنقلها إلى المستشفى.

يعلو صوت سعالها، راقدة على السرير، تجاورها عنايات وسوزان، يربتان على كتفيها، تحملًا للألم تثني عليهما بنظرات العرفان؛ لوجودهما حولها وقضاء ما تبقى من عمرها بين أحباء تنبض قلوبهم بصخب حياة عامرة بالحب.

نبذة عن المؤلِّفة

الاسم: هبة حمدي حسين

الدولة: مصر_ الغربية

أخصائي تكنولوجيا.

أعمال سابقة:

لا توجد.

دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني